الأميرة هيفاء والامير فخر الدين الكبير

رواية لبنانية تاريخية أدبية (تابع)

بقلم
الاب مبارك تابت اللبناني
رئيس دير الطنطس في الابراشية

١٣

أين الاميرة هيفاء ؟

كل ما لقيه الامير في ايطاليا من الحفاوة والاكرام وكل ما احرزه من مجد وبُعد صيت وكل ما انتال عليه من هدايا الحكام والاعيان وما اقيم لتكريمه من شائق الحفلات في اماكن اماكن - وما تقاضاه من إعمال الفكر الاهتمام بشؤون لبنان والسعي لتعزيز مركزه وإنفاذ خطته ، كل ذلك لم يكن ليشغل قلبه عن هيفاء . لا يدري أميتة هي فيسلوها أم حيّة فيفتديها ، يجب ان يفتديها ولو بروحه ، لكن ما يصنع ؟ وهو لا يعرف خاطفيها ولا مكان منفاها وعذابها ، فبينا يكون غائصاً في لجة السياسة او منفسحاً في افراح الحفلات او جالساً الى المآدب الفاخرة او مجالساً ارباب الصوالج واركان الحكومات والكبراء والاشراف يكون الغمّ مرمضاً جوانحه ومصلياً ضلوعه . غير انه يلبس لكل حال لبوسها ويكتم ما بقلبه من وجدٍ مذيب . وشبح هيفاء نصب بصيرته وذكرها جائل في ذهنه وكأن صوتها متصل بسمعه . فاذا أصاب خلوة جلس في خلوته يناجيها وتناجيه ويرسل روحه تجوب البلدان وتطوف القفار وتغوص في اعماق اللجة وتنفذ الى السجون المظلمة والحصون المنيعة والقصور الجميلة وتدخل البيوت والكهوف حتى القبور وبطون الحيتان ينشد ضالته الغالية والمحبوبة فلا يقف لها على أثر . فتتلظى نار في كبده ويتصل اوارها بدماغه ويغشي قتامها على عينيه فتنصب دموعه ويعضّ على اصابعه ويصيح : هيفاء ! يا جنتي وسعادتي اين انت ؟ اين انتِ ايتها الجنّة الشهية الثمار ؟ اين انتِ ايتها المرأة المكوبة في قالب

الجمال ، المانـة في ملابس البهاء . اين انتِ ايتها الزوجة الامينة ذات القلب الطـاهر والعفف المنيع . يا جوهرة الاخلاص وملحة الوفاء وزبدة الحكمة والرزانة والارابة والذكاء ، كيف السلوّ عنكِ وانتِ أعزّ عليّ من مالي وولدي ونفسي ، ولولا استحيـائي من نفسي لقلتُ انتِ عندي بمكانة لبنان سيدي ومعشوقي ! أما أني لو غلبتُ العقل على القلب بمحاولة السلوّ في موطن توقع اليأس لنهض عليّ الشرف يطالبني بما يحق على الزوج لزوجه من الحرص على حياتـه وعرضه والاعانة على كوارث الدهر والسعي لارتاعه مراتع الراحة والهناء ، ايكون فخر الدين امير لبنان وقاهر الولاة وفاتح الاقاليم وساحق الجيوش وحامي الذمار ومرسل الذئاب والغنم ترعى معاً في مروج الامن والسلام ، أيكون ذلك الرجل وتخطف زوجهُ ويُنهك عرضه وتُسلب سعادته فلا يعرف السالب ليثأر منه ولا مخبأ المسلوب ليستعيده ! أهيفاء لئن قعدت بي الهمة عن الثأر لكِ ولنفسي ، لئن لم اهتدِ اليكِ والى ظالميكِ لأكسرنَّ هـذا الحسام الـذي كسرتُ به الجيوش ولاسحقنَّ هذا القلب الذي أُتّب بقلب الاسد ولاعدونَّ اسم فخر الدين من سجلّ الشرف المنيّ فلا اكون حلقةً من حديد في سلسلة اجدادي الذهبية .

لم يكتم الاميرُ عن صديقه دوق توسكانا رزيتهُ بالاميرة هيفاء ، بل قصّ عليه الحادث منذ يوم اتصالهِ به . فجهد الدوق في الكشف من غمه ، وأمّله بانقاذ الاميرة ، وارسل البعثـات وبثّ الارصاد في جميع جزر المتوسط وفي سواحل افريقية وبلاد اليونان . واشتركت في ذلـك عيونٌ من قبل فيليب الثالث ملك اسبانيا ، فعاد الكلّ يتعثرون باذيال الخيبة ، وما زادوا على ان اذكوا جذوة الحزن في صدر الامير وركموا على نفسه أكداس القلق والغموم . فمنهم من قال ان اعرابياً من اهل الجزائر قتل امرأةً غريبة لابائها التزوج به ثم انتحر من بعدها يأساً وخوف القصاص . ومنهم من قال انّ امرأةً سقطت أو أُسقطت في البحر فابتلعها تمساحٌ . ومنهم من قال ان جثـة امرأة وُجدت عالقةً بين صخرتين على شاطئ جزيرة ارواد وقد نال منهـا البلى فاستعصت معرفتها على التحقيق . الى غير ذلك من الاخبار التي اوقعت الامير في الحيرة وقرّبت شقة اليأس اليه . وكان قد كتب الى ابيها يخبرهُ بامرها فاتاهُ جواب

مع البعثة الطليانية الآنفة الذكر مفاده انه قد بحث عنها في مواضع كثيرة فافضى بحثه الى تزيد الغموض.

وكان ان الامير جلس يوماً في شرفة قصره وارسل نظره على طول الشارع ينظر الى الناس يروحون ويجيئون . وفكره يطوف الارض لعله يعثر على الضالة العزيزة واذا بغربي في بزة حسنة وشكل نظيف ولحية قصيرة رسم فيها المشيب خطوطاً بيضاء وقف تحت الشرفة ورفع عينيه وتفرس فلم ينتبه له الامير حتى عطس من حرّ الشمس وسعل وتنحنح فالتفت الامير فتلاقت منها الابصار فحيا المغربي الاميرَ وقال : انّ لي كلاماً اقوله لسيدي فهلّا يأذن لي بالدخول ؟ فاستدعى الاميرُ مملوكاً ادخله . فقال المغربيّ : انا رجلٌ من الجزائر طفتُ بلداناً كثيرة وردت اراضي لبنان وسوريا وعرفتُ بالخبر الامير فخر الدين ومكانته العالية في نفوس اهل تلك البلاد . وواجهت امه واخاه وابنه وكثيرين من آل معن والمقربين اليهم . واستقصيت اخبار فتوحه المجيدة وسياسته الرشيدة الى عدله وحلمه وحكمته نعشقته اذني قبل عيني . فاتيتُ هذا البلد لاراه وافتح له عن سرٍّ خفي مفتاحه عنه . لعلي اكشف من غمّه واخفف من كربه . فتفضل الامير بحاجبيه وامتصّ مصةً من انبوب غليونه الطويل . فخرج الدخان كثيفاً من فمه ومنخريه . وقال : لستُ غرّاً فاصدّق كل ما يُقال . وحيلُ المغاربة لا تجوز على غير الصبية والاغرار . يدّعون علم ما في الغيب وهم لما يلمسونه باصابعهم جاهلون . كفّ عن المقالاة في تبجيل الامير ، وان كانت لك حاجةٌ مما نستطيعه فمقضيةٌ لكَ .

— لستُ دجّالاً ولا ذا حاجةٍ كما تتوهم يا اميرُ . انما احبّ ان ابعد عن نفسك تهمًا لم يفارقك منذ احلتك هذه البلاد .

— مَن اوقفك على غمي ؟ خذ هذه المنحة وانصرف بسلام . وحلّ كيسه ونفحه ذهبين طليانيين . فشكر وامتنع عن اخذهما . فقال الامير استقلّيت عطاءنا . فنحنُ زائدوك . ودفع اليه ذهبين آخرين . فامتنع ايضاً وشكر . وقال : راحتك لا ذهبك ابتغي ايها الامير ! فاستغرب الامير امره . وقال : تكلم . فقال : اعلم يا مولاي لا ادعي علم الغيب ولا انا ممن تعهده من المغاربة الدجّالين الذين يتعيشون بخدع الدجّ والاحتيال . لا والله ، ولا مهنتي التنمة

والطلسة واحراق البخور وكشف المخابئ والخطوط . انا ابن نعمة وترف ولي اموال كثيرة ، ولم تخرج الامارة من بيتنا منذ مئات من السنين ، مالت نفسي الى التنقل فصرت جوّابة تتهادى البلدان والاقاليم ، وقذفت بي النوى الى ارض لبنان فوقع عليَّ لصوص في دامس الظلام وقد انتهى بي المسير الى وادٍ عند راشيا فسلبوني ما معي حتى ملابسي واوسعوني ضرباً وخلوني عارياً وتواروا. فلمَّا اصبحتُ احتملني رجلٌ على دابته الى القرية وانزلني في داره وعالجني حتى شفيت . ثمَّ ارسلني الى اخيك الامير يونس وهو في دير القمر فشكوتُ اليه ما نابني فقال تنزلُ عندنا حتى ننظر في امرك ففعلتُ ، ولقيتُ ضيافةً سخيةً وكرامة . وبعد شهر واحد اقبل اربعة فرسان باللصوص الثلاثة وقد كبلوهم بالاغلال ومع الفرسان رسالة من الامير محمد الشهابي احد امراء حاصبيا يقول فيها للامير يونس : اليك اللصوص وما سلبوه . فردَّ السلب على صاحبه وافعل بهم ما تشاء . فامر بهم فضربوا بالقضبان واطلق سراحهم . وردَّ عليَّ مالي وزادني من كرمه . واخبرني بقصة الاميرة هيفاء. وقال لي : لعلك تعثر على اخبارها وانت تجوب البلاد . قلت ان لكم عليَّ لمعروفاً . فخدمتكم على الرأس والعين . ورحتُ انتقل من بلدٍ الى بلدٍ اتجسس وانا متظاهر بمهنة « التبريج والتنجيم » حتى انتهيت الى قلعة الحصن في لبنان الشمالي ، فاذا في الساحة نسوةٌ لاحداهنَّ فضل مزيّةٍ واشراق على سائرهنَّ . (فبصرت) لكل منهنَّ وعرفت اسماءهنَّ وكثيراً من احوالهنَّ . فاذا المرأة ذات المزيّة هي الاميرة هيفاء عينها . تمكنت من تحديثها على عزلةٍ واطلعتها على قصدي فقصت عليَّ حديثها . هاك موجزه : ان اباها حابسٌ عليها في الحصن رهينةً يشتري بها حياته اذا عُدت تحاربه وظفرتَ عليه . قلتُ لها : انا اعملُ لانقاذكِ . قالت : بل احذر ان تعلم بامري انساناً من اهل هذه البلاد لئلا تقع حرب بين المعنيين والسيفين في غياب فخر الدين فتدور الدوائر على المعنيين لان الاتراك لهم بالمرصاد . غير اني احملك رسالةً تنفذها الى زوجي الامير ان شئتَ ان تصنع اليَّ احساناً ورحمة . قلت انا لخدمتكِ ، فاتت بصرّةٍ اخفت فيها الرسالة عن عيون صاحباتها . وقالت على مسمعهنَّ . هذه الصورة حلوان لك استحقيته يا فرّحتنا بزيارة علمك وظرف بيانك فاخذتها من يدها وجعلتها كحرز على

صدري . ولم ألتفت حتى انتهيت اليك .

وكان الامير يصغي اليه وقلبه ينتفض من الفرح وقد اخذ منه الدهش كل مأخذ حتى كاد لا يصدق ما يسمعه . وصار كمن بين اليقظة والمنام ، ولما فضّ الرسالة ورأى خط الاميرة تحقق صحة الخبر وطفق يقرأ والدمع في مقلتيه حتى اذا انتهى قال للغريبيّ فرّج الله عنك كما فرّجت عني يا امير . بماذا اكافي هذا الفضل . تالله لو وهبتك روحي لاستقلّيتها عليك . قال : بروحي انت . ما اردت الّا تفريج نفسك وتقليل غمك لتصرف همك الى بغيتك الوطنية الشريفة ، قال : لا بدّ من إثابتك — قال : ما انا بحاجة الى شيء ، حسبي صداقتك . قال : انتَ الى الموت الصديق الحميم . قال : واني من محالفيك على كل عدو . فستوافيك الى لبنان نجدةٌ من رجالي بقلوب لا يهولها الخطب ولا يدخلها الرعب . فمدّ له الامير يده وتصافحا وتحالفا وودّعه الاعرابيّ وقال : اذا عقدتَ العزم على حربٍ فأنفذ اليّ نبأً فانا ورجالي اسرع الى نجدتك من الريح — . قال : عِشتَ لله درُّك من صديق وفيّ .

١٤

قصر الامير

فقهَ الامراء المعنيون ولا سيما فخر الدين الاول وابنه قرقماس انّ التعصب الديني اذا خرج به عن استقرار الاعتقاد واقامة الفروض وخلوص العبادة الى ايثار طائفة على طائفة في الاحوال المدنية والائتلافية او الى الضغط على فريق من اهل الديانة صار من اقوى العوائق على استتباب الحكم وبسط السلطان على بلد سكانه خليطٌ من مسلمين ومسيحيين ودروز ويهود كالبلد اللبناني . فتذرعوا لخنق التعصب بالتسامح واطلاق الحرية الدينية وبسط العدالة والمساواة وتقريب المسيحيين كاخوانهم الدروز والمسلمين . فاستوزر الامير قرقماس الحاج كيوان نعمه الديراني من اعيان الموارنة وكان ذا عقلٍ ثاقبٍ وحكمة واسعة وحنكة سياسية نافذ الكلمة في ابناء ملته اميناً وفيًّا صادقاً عالي الهمة بعيد النظر . أدّى لمخدومه ثمّ ابني مخدومه اليمين وزوجته الارملة خدماتٍ جليلة سجّلها له التاريخ بمداد الشكر والفخر وظلّ على امانته لاسياده الى منتهى ايامه .

اما الامير فخر الدين الذي ورث نبذ التعصب الذميم عن جده وابيه فجاء ابلغ منهما فيه لانه ربي في بيت مسيحي في قلب كسروان بلد المسيحيين وشاهد بام العين مدى سنين عديدة فضائل الموارنة واخلاصهم للوطن وللسلطة الوطنية وامانتهم في جانب حكامهم وامرائهم ، وعرف ان حياته وحياة اخيه انما هي من فضل كيوان الديراني وابراهيم الخازني صاحب العماد الرفيع والسيف الطويل فنشأ بعيداً عن التعصب الديني المفرّق ونازعاً الى الدين المسيحيّ ومحبة الموارنة متقديه . ولما صار في ايطاليا ولاقى من حكامها واعيانها حفاوةً واجلالًا ومحبةً مع انه غريبٌ عن ديانتهم ، ورأى ما للملوك المسيحيين من من الحب لاوطانهم والعدل في رعاياهم وما يصرفونه من الهمّ الى كبر المعارف وإرتقاء الصناعة والفنون وتجويد الزراعة بتعزيز مزاوليها واثابة المبرزين فيها، وما يجملون به انفسهم من خلال الخير ولوامع الفضائل التي يفرضها الدين المسيحي على جميع اتباعه من اية طبقةٍ كانوا ازداد جنوحاً الى هذا الدين واعظمه على قياس ما أعجب بمزايا اتباعه وآبهة كنائسهم وطقوسهم الدينية ومشاهد عبادتهم الشائقة ، فأكبّ على قراءة الاسفار المقدسة وعارض بين اسفار العهدين القديم والجديد وبين الاديان الثلاثة الموسويّ والمسيحي والمحمدي، ودرس اتلاد الدين المسيحي ونشأته وانتشاره ونقب عن حقائقه واسراره فبدا له ما حمله على رغبة الانضواء اليه ، وصار يتمنى على واضعه فادي البشر رغائب مشروطة الحصول باعتناقه فيعطي ما يلتمسه بصورة عجيبة . ومما تذره انه اذا اهتدى الى زوجته الطائعة وفاز بما يرومه من مخالفة بعض الملوك المسيحيين على الدولة العثمانية توحيداً للامارة في لبنان بقبل المعنودية وممّا شريفاً يحافظ على مجده ونصاعته الى الموت . ها قد جيدّ عليه بما التمسه بنذره من ظهور الامير وعقد المحالفة وعما قليل يعود الى لبنانه المحبوب بالذخيرة والرجال فيجد اللبنانيين على اختلاف الرتب والنحل متأهبين لشدّ ازره وانفاذ امره ، فلمَ لا يصير مسيحياً ايفاء لنذره وسعياً الى المصلحتين الابدية والزمنية باستدامة رضا الله وتوفيقه والاستزادة من منحه وآلائه ، ويجعل حلفائه المسيحيين على فرط الركون اليه والثبوت في جانبه ، فعقد القلب على اتخاذ الديانة التي علقت بيقينه واستمالت رجاءه وشغفت قلبه منذ حداثته .

ألا ان شريعة الانجيل لا تأذن بتعدد الزوجات ، فما يصنع الامير بزوجاته؟ تلك عقدةٌ كان في اول امره يستعسر حلها لتعلق قلبه بهنّ . لكنه لم يبطؤ ان اعتقد امكان الاكتفاء باحداهنّ والّا فكيف يقتصر الرجل المسيحي على زوجة واحدة وعددُ المعمور اكثر من المسلمين ، على ان الشريعة المحمدية تجيز الطلاق فبقوتها يسرّح زوجاته الّا واحدة منهنّ ، وهنا ايضاً تصدّت له صعوبة وقف تجاهها على قدم التردّد اياماً ، وهي ايّ زوجاته يستبقي ؟ احبها اليه هيفاء وخاصكية فمن ايتها ينسلخ ؟

وكانت خاصكية معه في توسكانا ولها حظوة عظيمة لديه بما وزقته من براعة الحسن وجمال الخلق . فهي ممشوقة القدّ لدنة المعاطف دعجاء الحدق كحلاء الجفون معتدلة القامة طويلة المنق بضة القشر ذات فكاهة ورقة ولطف ومستميتةٌ في خدمة الامير وحبه ورضاه . ولها فوق هذه المحاسن جمال الخلال العقلية ورواء الفضائل الادبية ، واسرتها مظاهرةٌ له واخوها عليٌّ مصاحبه في غربته . الّا ان محبته لهيفاء اعرق في قلبه واغلب على عواطفه لا لانها افضل من خاصكية جمالًا او اخلاقاً فهما في ذلك متماثلتان ، وانما هي ثمرة تعبه وصبره وقد ذاقت في سبيل محبته الامرّين . وتبرّأت من ابيها واخوتها واسرتها لموقفهم من مخالفته ووقفهم تجاهه موقف العداء . وقد اقسم لها بالمروءة والشرف انه لا يسرّحها ولا يؤثر عليها ضرّة الى منتهى العمر . فكيف يحنث بقسمه وهو اكبر من ان يخون شرفه ومروءته .

هذه الافكار لبثت تناصبه وتتنازع على فؤاده واميله حتى نزل به خطبٌ ادمى فؤاده لكنه اخرجه من تردده وحيرته : كانت خاصكية ظريفة المحاضرة بسّامة الثغر طلقة المحيّا عذبة الكلام . خالطت اهل توسكانا وامتزجت بنسائهم فاحببنها حتى لم يعد بهنّ صبرٌ على فراقها ، فكانت تزورُ وتُزارُ وصار معظم وقتها مشغولًا بالمجالسة والمؤانسة والخروج مع السيدات الى البساتين والحدائق وسائر اماكن التلهي والفرح . وكان ذات يوم انها دخلت حمّاماً في طرف المدينة مع صديقتها الفراندوقة وبعض جواريها . ثمّ برزت منه للهواء البارد فلم تبلغ قصرها حتى احست بالمرض في رئتها واخذتها حمى شديدة وعسر تنفس ، انتهى بوفاتها بعد ثمانية ايام . فأقيم لها مأتم حافل مشى فيه الحكام والكبراء.

والاعيان ، وبكاها الامير حتى ابكى كل من حضر ودُفنت مكفنة بالحسرات والزفرات محنطةً في قبر ملكيّ الى ان ينقل جثمانها الى لبنان ، وامسى الامير من بعدها منكسر القلب مستوقد الصدر يصرف ليله يساور الهموم ويسامر النجوم . ولم ينفك الفراندوق عن معالجة حزنه باسباب التعزية حتى استدرجه الى الصبر والسلوان . وكان انه بعد رجوع البعثة اللبنانية من لبنان جاءه كتاب آخر ملكيّ من فيليب الثالث ملك اسبانيا يدعوه لزيارته في العاصمة الاسبانية فتوجه اليه ببعض حاشيته فاستقبله الملك استقبال النظير بين صفوف من الجند وامامه الموسيقى العسكرية والملكية ، واولم اكراماً له ودعا الوزراء والاعيان واقطاب البلاد فاجتمعوا ومعهم خلقٌ كثير . وأجلس الملك الامير عن يمينه وكان بزّته الاميرية اللبنانية من سراويل قصيرة من الجوخ الازرق مطرزةً بالذهب عن الجانبين تسترُ نصف الجسم الادنى الى الركبتين ، ومنها الى القدمين «طاقات» من جلدٍ احمر ملفوفة على الساقين بعرًى كبيرة من فضة لامعة . وعلى النصف الاعلى من البدن (دامرٌ) من جوخٍ رصاصيّ اللون مطرّز بخيوط الذهب تطريزاً بارزاً باشكال جميلة من الامام والخلف وعلى الجانبين ، بكمّين طويلتين تنتهيان بترويستين الى مفرز الاصابع من اليدين ، وهما مفتوحتان من تحت الابط الى المعصم يضمها عليه زرٌ من ذهبٍ بحجم حبة البندق وشكلها . اما الزنار فمن صوفٍ ملوّنٍ صناعة العجم من النسيج المعروف بالشال العجميّ او الشال ترما . وعلى الرأس عمامة قاتمة اللون ملفوفة على شكل مخروط ، وفوق هذه الملابس وشاحٌ من حرير اصفر او قاتم بلا كمّين يزيد عن طول قامته زهاء ذراع الى الارض ، واحياناً يغيره بعباءة من صوف او حرير مشبكة الالوان مطرّزة بالذهب . فهذه الملابس البهية الغير المألوفة في البلدان الغربية كانت تحوّل اليه الابصار وتوشحه جمالاً في العيون .

ولشدّ ما ادهش الناس بفصاحة منطقه وبلاغة حديثه ولطافة نكاته وفطانة اسئلته وسداد اجوبته مما ملك به ازمة القلوب وقبض على نواصي القلوب . فافرز له الملك قصراً من قصوره وثلاث مركبات له ولحاشيته وفرساً كريماً بسرجٍ ثمين لركوبه وانراساً لركوب اتباعه . ولم يدع شيئاً من الحفاوة الا ساقهُ اليه . فاقام في ضيافة الملك مدةً طويلة تحدثا في اثنائها عن

شؤون خطيرة ناظرة الى الامارة والمملكة محالفةً تضمنت فوائد جليلة لمصلحة فخر الدين . ولما استوثقت بينهما عُرى الصداقة انفتح للملك السبيل الى تحبيب الامير بالدين المسيحي لعله يدين بهِ فيكون ذلك ادعى لركون الملوك المسيحيين اليه واجدى على سياستهِ وبلاده ورعاياه المسيحيين غير انه لم يصرّح له بالدعوة خشية ان يجرح عاطفتهِ الدينية او يتهمه الامير باتخاذ السياسة وسيلة لمصلحة الدين ويجب المحالفة مسوقةً الى غرض ديني . فافرغ كلامهُ اليه في قالب التحفظ متجافيًا في بيان محاسن الدين المسيحي ما يدل على الرغبة في استمالة الامير اليه . غير ان الامير لم يفتهُ مراد الملك فقال لهُ : اعلم ايها الملك انَّ هذا الذي تحبه مني ولا تجرؤ لحلمك وادبك ان تعالنني بهِ ، انا بنعمة الله شديد التروع اليهِ وقد اخذت النفس بهِ ولا بدَّ من ادراكهِ . غير اني ارقب له الفرص واتوقع ان يتم تمهيد السبيل اليهِ . ولو كانت السياسة وحدها تقضي بان اصير مسيحيًا لما لبيت لها نداء لان العاقل لا يبيع دينه بدنياه . غير ان لي في الديانة المسيحية مصلحة ابدية اراها بعين الاعتقاد وليسوع المسيح كلامًا سريًا الى قلبي لا املك ان أصمّ دونه مسمعي ، فلا تعنّ النفس بتزيين ديانتك انها في اعتقادي أجل مما يملك ان يصفها بهِ الواصفون . فطابت نفس الملك بهذا الكلام وايقن ان الامير ابا ان يكون مسيحيًا منذ طفولتهِ واما ان يكون بالقصد والنية . حينئذ طوى الملك هذا الحديث واخذ في غيره . فقال الامير : ما اوقفت جلالة الملك عليه من أمري أحبُّ ان لا يكشف لآخر لانه اذا اتصل بعلم صحبي وحاشيتي انقلبوا عليَّ لرسوخهم في الاسلام فينفرون عني انصاري وكلّ العنصر الاسلامي في بلادي فينتهي امري الى الفشل . قال الملك : لك علينا ان نكون اكتم لسرك من نفسك فاسعَ انت الى الغرض من سبيل الخفاء ونحن سنعرض عليك ان تدين بديننا فتجاهر بالرفض فلا ينكرونك بل يزداد رسوخهم اليك وليس على المرء ان يكاشف بسرّهِ كلّ أحد .

ثمَّ ان الامير ودّعه وعاد الى قصره عند الدوق كوكوس . وبعد ذلك وقع الحادث الآتي الذي كتبه الجانديّ مؤرخ فخر الدين . هاك كلامهُ بالحرف[1] : « كان في خدمة الامير ناصر الدين وكان مقدّمًا فاتاهُ اسيرٌ وقال لهُ : لنذهب

(١) نقلنا هذا من مجلة الآثار الناقلة عن الجانديّ مؤرخ الامير .

الى الجنينة فذهبا . واتى الدوق باشا نابولي فساغتم ناصر الدين فطيب خاطره وقال : انتَ من اين . وكم سنةً لك في خدمة الامير ؟ قال : انا من صيدا واخدمهُ من صغري : فاعطاه الدوق مكتوباً وقال : هذا من سلطان اسبانيا مضمونه ان كان فخر الدين يدخل في ديننا نعطيه من الحكم على قدر ما كان له وازيد . وان كان ما يرضى بذلك فان اراد يقعد وان اراد يروح الى بلاده . قال : نعرض لهُ ونأتي بالجواب . فحكى الشيخ ناصر للامير فقال الامير . قل للدوق وتشكر منه ومن سلطان اسبانيا قل . قال الامير : ما جئتُ الى هذه البلاد كرامة دين ولا كرامة حكم ولا حكومة . لمَّا جاء علينا عسكرٌ ثقيلٌ جئنا احتمينا عندكم وحميتو رأسهُ وراعيتوه ولكم بذلك الفضل والجميل والمنة . ان اردتم هو قاعد عندكم بتوابعه على حالهِ وان ارسلتوهُ الى بلاده فهو المراد لان له اهل وتوابع وبلاد » .

اذًا علق بذهن القارئ ما سبق لنا الكلام فيه عن تعمد الامير اخفاء تنصره عن خادمه الشيخ ناصر وعن سائر اتباعه المسلمين على ما مرّ من حديث الامير وسلطان اسبانيا الذي رويناهُ لم يستغرب اعتقاد المؤرخ ان الامير لم يخرج من الاسلام الى الدين المسيحي لانهُ لم يكاشفهُ بهذا الامر ، وقد قضت الفطنة عليهِ ان يكتمهُ محاذرة ان يُسخط الدولة ويفتح سبيلًا لمناوئيهِ الى اثارة المسلمين عليه ، وانما اعلنه لاهل بطانته من المسيحيين لوكونه اليهم ثمَّ لاهل بيتهِ بعد تنصره ليتنصر منهم من يشاء[1] .

وبعد هذه الاحداث سعى كسموس الثاني لدى البابا اربانوس الثامن ليأذن بمواجهة الامير واوقفهُ على احواله واغراضه ووصفه له باجمل الاوصاف فاذن له بالمواجهة ثلاث مرات في مواقيت مختلفة وكان الفراندوق معه الا في مواجهة واحدة صحبهُ فيها العلّامة ابراهيم الحاقلاني[2] وهو ماروني من قرية حاقل في

١) على ان من الوشايات التي اثارها اعداؤهُ ازدراؤه الشريعة المحمدية من انه لا يصوم رمضان ولا يحجّ ولا يدخل الجامع الّا مرةً في السنة وقد هدّم جوامع كثيرة . فهذا ادلّ على انتقالهِ الى الدين المسيحي من قول المؤرّخ اخذًا عن الشيخ ناصر الصيداوي . انه آثر البقاء في الاسلام .

٢) التقاء الحاقلاني بالامير ليس بالواقع التاريخي انما كان الحاقلاني بمكان معتمد له في رومية وقد سعى لاستطاف البابا اوربانوس على الامير وزيّن له الانضمام الى المحالفة عام ١٦٣٠

بلاد جبيل تلقى علومه في المدرسة المارونية الشهيرة التي انشأهـا للموارنة في رومة البابا غريغوريوس الثالث عام١٥٨٤وكان لابراهيم منزلة عالية في الفاتيكان فانتهزها فرصة لاظهار روحه الوطنية المتمكنة فتذرع لدى الكرسي الرسولي والحبر الروماني بكل وسائل التوسل والتشويق حمـلاً للبابا على الانضمام الى المحالفة اعتقاداً انها تعود بفوائد جمة على مسيحيي لبنان وسوريا ، وثبت هـذا اللبناني المخلص على محبة الامير وولائه والسعي لاستحصال ما يرومه من استمرار رضا الفاتيكان وإنجاده الى المنتهى . فكان لفخر الدين بمثابـة مستشار امين حكيم لا يني يعمل لمصلحته ومصلحة الوطن . وقد شهد التاريخ بسعي الطاقلاني لاستعطاف البابا اوربانوس على فخرالدين وحمله على الانضمام الى المحالفة عام١٦٣٠

رأى البابا في وجه فخر الدين سيماء الصدق والاستقامة وسمع من حديثه ما يشفُّ عن نفس كبيرة وهمة قصية المرمى وحكمة باهرة وجرأة نادرة فعطف عليه ووعده بالانجاد وسرَّ سروراً عظيماً بما ابداه له من رغبـة الاصطباغ بالمعمودية عن محبة للدين المسيحي اعتبار ما يترتب على تنصره من حرية العبادة للمسيحيين اللبنانيين واهتداء عدد من الغير المؤمنين ، فبارك عزمـهُ واستحثه لانفاذه وامرَ له بمال وتحف واناط بعنقه ذخيرة الصليب المكرّم في حُقٍّ من ذهب مرصع بالحجارة الكريمة مما يُهدى الى الملوك وقال : ليقكَ الرب كل خطر داخلي وخارجي بقوة الصليب الكريم . فظلت تلك الذخيرة المباركة على صدر فخر الدين تحت ثيابه يحتفظ بها معتقداً قوتها الواقية الى يوم وفاته عاينها الجـلادون يوم قتله في القسطنطينية . تزوّد الامير بركة الحبر الاعظم وشكر لقداسته واقسم على الامانة له وللدين الذي سيحمله وغادر رومية مخلفاً فيها قلبه ومحبتهُ واجلاله . وتحدّث الى محالفه دوق نوسكانا في ما يجب من التمهيد لتنصيره .

فقال الدوق : لم يبقَ عليك بعد ما أحطتَ علماً بمبـادئ الدين المسيحي وقواعد الايمان الّا ان تختار الزمان والمكان — قال : ان موقفي تجاه بلادي والدولة لا يأذن لي بالمجاهرة . فاتفقا على ان يصير ابلاؤه سرّ العماد خفية عن بعض اتباعه وفي دير رهبان مار فرنسيس الحفاة ، وضربا لذلك ميقاتاً فلمّا كان الميقاتُ اقبل الامير الى كنيسة الدير يصحبه الدوق والدوقـة والحاج كيران

الديراني والشيخان الخازنيان ابو نادر وخاطر ومن معهما من رجالها والعلّامة ابراهيم الحاقلاني الذي استدعي من رومية ليشهد حفلة العماد . أُغلقت ابواب الكنيسة وصُبّ ما. العماد على رأس الامير من يد الاب ادريان رئيس الدير. وقام الدوق والدوقة زوجته بكفالة المعمود وسُجل تاريخ اعتماده في سجلّ كنيسة الدير خامس عشر آذار سنة ١٦١٥ ، ولم يعلم بتنصره احدٌ من اتباعه المسلمين مراعاة للاحوال السياسية ، ولم يكن للامير سراريّ فيسرّحهنّ انما سرّح بعض خادمات خاصّة لاستغنائه عنهنّ بعد وفاتها ، وصار قلبه من جهة النساء مصروفاً الى زوجته هيفاء وحدها اذ كان لا يقنط من لقائها ما دام لا يقنط من بقائها .

١٥

قدوم الامير الى بنانه وعوده الى ايطاليا

كان الامير على ما عنده من الجرأة والاعتماد على النفس والولع بالفتح والطموح الى المجد حكيماً متبصراً يرسل النظر الى العواقب ولا يلهيه ما حضر عمّا غاب . لذلك لم يستفزّه النجاح الذي اصابه في ايطاليا فيقطع بصوابية العود نهائياً الى لبنان قبل ان يثبت الاحوال بنفسه ويكون على يقين من اجماع الاعيان والحكام على الالتفاف حوله ، ومن موقف الباشاوات اصحاب الولايات تجاهه ، ويعلم ما للدولة هنالك من قوات لمناهضته ، فخطر له ان يتوجه اولًا الى بلاده ويبقى في المركب الذي يقله في موضع قريب من البرّ ويستدعي اخاه يونس ويستفهمه الاحوال ، فاذا علم ان قد حان وقت الشروع في العمل يعود الى ايطاليا فيعدّ اهبة الرجل ثم يرحل بجاشيته الى لبنان ويستأنف حكمه وحروبه ، شاور في ذلك ملك اسبانيا والدوق كسوس فاستصوبا رأيه فودعهما وركب البحر يصحبه الشيخ خاطر الخازني وزيك بن العقيق وبعض رجالها ، وجاء السفر موفقاً وسعيداً لهدوء البحر وسكون الريح طول المدة حتى انتهت المراكب في شهر تشرين الاول الى ساحل عكا. فالقت المراسي بين الناقورة وصور.. واعطى الاميرُ الشيخ خاطراً ثلاثة اسهم وقال له : انطلق الى دير القمر واعلم اخي يونس بقدومي ليوافيني ببعض اهل البلاد الى الدامور ، فاذا

وافيتم فاشعل الاسهم الثلاثة علامةً اعرفكم بها لئلا يفاجئنا مـا نكرهُ . فلمّا علم الامير يونس بقدوم اخيه سُرَّ سروراً لا مزيد عليه واذاع الخبر على اهل البلاد فاجتمعوا اليه ورافقوه للملاقـاة الى الدامور وانتظروا حتى اقبلت مراكب فخر الدين فارسل الشيخ خاطر الاسهم الثلاثة في الجوّ فدنت المراكب من البرّ والقت مراسيها . واخذت القوارب تحملُ المسلّمين الى المراكب وتردّهم الى البرّ فوجاً فوجاً على حسب رتبهم . وكان الحشد عظيماً فلم تطق القوارب حمـل جميعهم . فسأل الاميرُ يونس اخاه ان ينزل الى البرّ فيراه الجمع لانه لا يحسن ان يُحرم من مشاهدته كثيرون من القادمين للقائه من اهالي كسروان وما يلي الى الجنوب فكلهم ظمآن الى مرأى وجهه وسماع كلامه. ففعل. والقى في الناس خطاباً افرغ فيه عواطف المحبة والحنوّ والوطنية والحماس ، فما اتى على آخره حتى ارعدت الاكف تصفيقاً وزمجرت اصوات الدعاء. تشقُّ الغمام الى السماء: ليعش الامير ! ليعش لبنان. ليعش لبنان واميره الكبير ! ثم جلس معهم للطعام في سهلة فيجاء ، ولمّا استوفوا فرّق هداياه على الاعيـان ونثر على الجمع فضةً وفواكه وحلواء ممّا حمله لهم من ايطاليا ، وحضهم على التوائق والتأهب لطوارئ الحدثان . ومكث معهم ثلاث ساعاتٍ ثمَّ ودّعهم وأملهم بقرب اللقاء وكرَّ راجعاً الى المركب . وخلا باخيه وامه وتحدّثوا ساعةً فاخبرهما بما لقيه من النجاح في اوربة وبانتقاله الى الدين المسيحي . فطابت انفسهما وهنّآه وأكدا له انهما لن يكونا الا على دينه ولن ينفكا يعملان لحمل سائر الاسرة المعنية على الذهاب مذهبهُ فحمد عزمهما وحذّرهما المجاهرة بذلك خشية ان ينقلب عليه بعض اهل البلاد قبلَ ان يستتبَّ له الامر ويبلغ من شأوه اقصـاه . ثم سألها عن الاميرة هيفاء. فاذا هما لا يعرفان من امرها الا ما انتهى اليهما من خبر اختطافها في البحر فخانه الجلد واكمد وجهه وترقرق الدمع في عينيه . فعاتبت امه ان تعزّيه بصرف فكره عنها الى ما هو بهمه والصق بقلبـه من شؤون حكمه ووطنه فبسطت حديث ذلك فانتهى . وبعد التحريض والتوصية من الطرفين لحق يونس وامه بالحشد الذين كانوا ينتظرونهما على الشاطئ في سهل الدامور . وامر فخر الدين فاقلعت المراكب وبرت تطوي مسافات العباب ، وعرّجت على مالطة تخفق من فوقها اعلام لبنان . فعرف اهل الجزيرة بقـدوم الامير

اللبناني الكبير وكان صيته قد طبق الآفاق وانتشر مسكاً لذيذ العرف عطر الاقطار والامصار . فخرجوا للقائه وراء حاكمهم الاستاذ الاكبر جوان مايسترو وادخلوه الجزيرة بين صفوف متراصة من جميع طبقات الناس وحيّوه باطلاق المدافع واصوات الهتاف . ونزل ضيفاً على الحاكم ثلاثة ايام[1] .

فأكرم ضيافته ، وزاره اعيان الجزيرة وزار هو منهم من استطاع . وطاف اخصّ الاماكن ذات الشأن من الوجوه الفنية والاثرية وعقد صداقةً مع الحاكم اشبه بمحالفة . ثمّ ودّعه واهل مالطة فشيّعوه بمثل ما استقبلوه من الحفاوة والاكرام وما زال في ذمّة البحر حتى انتهى الى ليفورنا واجتمع بصديقه الدوق كسموس بعد فراقه سبعة اشهر اي مدة رحلة الامير ، فاخبره بكل ما جرى له في ذلك السفر الطويل ولا سيما مبادرة اللبنانيين للقائه في الدامور واعلانهم بالاقامة على حبه والاخلاص له والنزول عند ارادته وتمام تأهبهم لمجابهة الاحداث وبذل المُهج دون القضية الوطنية . فسرّ الدوق بهذه الاخبار وانفذا الى الحبر الاعظم وملك اسبانيا يوقفانهما على هذه الشؤون ، وبات فخر الدين يعلل النفس بقرب الرجوع الى تخت الحكم وامتشاق الحسام لحسم دابر الاعداء الذين يحولون دون استقلال لبنان وتوحيد امارته . واستكنت آماله اللذيذة وتبلج فجرُ امانيه .

١٦

افول نجم الفخر وعودة فخر الدين الى لبنانه

حياة الانسان سلسلة مختلفة الحلقات ينتقل فيها من ضيقةٍ الى واسعة ومن واسعة الى ضيقة بين التعب والراحة واللذة والحرمان والسعادة والشقاء . واليأس والرجاء . فما تدومُ على حالٍ لهُ حالُ . ولا تنسج له الاحوال على وحدة منوال .

---

١) كانت الجزيرة في ذلك العهد بايدي فرسان مالطة وحاكمها رئيسهم واسمه جوان مايسترو ولقبُ الاستاذ الأكبر .

ويظهر انهم يطلقون هذا اللقب على رئيسهم الحاكم ، ويُدعون فرسان القديس يوحنا ، وهم جماعة رهبانية محاربة نشأوا في القدس واستولوا على رودس سنة ١٣١٠ واحتلّوا مالطة سنة ١٥٣٠ وحصّنوها . واولُ حكامهم فيها آدم دي ليل حكم سنة ١٥٣٢ واخرهم هومبش انتهى حكمهُ سنة ١٧٩٨ باحتلال نابوليون الجزيرة في تلك السنة .

لم تنته سنة ١٦١٢ وهي السنة التي ارتحل فيها الامير فخرالدين الى ايطاليا فراراً من وجه الحملة التي سيرها علية السلطان احمد الاول بقيادة احمد باشا الحافظ حتى تثبت المنية اظفارها بهذا السلطان وخلفه على عرش السلطنة اخوه السلطان مصطفى بعد نزاع على ولاية العهد . فلم يكد يستقرّ له الامر حتى ثار عليه العسكر فاسقطوه عن اريكة المُلك واجلسوا مكانه السلطان عثمان الثاني ابن اخيه. قبض الصولجان ولما يستكمل ربيعه الثامن عشر، فهذه الاحداث التي وقعت في عاصمة الاتراك مع ما صحبها من خلافٍ ومكائد وإحن الى ما أحدق بالدولة من معضلاتٍ ومُعقدات من جهة ممالك بولونيا وروسيا وامارات البلقان فتحت لفخر الدين مخرجاً من مأزقه وسهلت له السبيل الى الفوز بأربه لما لزم تركيا ان تعاني في حلها كثيراً من الهمّ وإعمال الفكر والتجارب السياسية والحيل المتنوّعة ولم يُثنها ذلك عن امتشاق الحسام في حروبٍ طاحنة. فكان هذا شاغلاً للدولة عن الاهتمام بشؤون سوريا ولبنان تقدماً للاقرب والاهمّ ، وهي لا تخشى كبير خطرٍ من جهة لبنان اذ لم يكن لها عدوٌ تخاف صولته وتطاوله على الولايات الّا الامير فخر الدين وهو في المنفى مكفوف الاذى . ولم يدُر في خلدها ما كان يدبّره عليها من عقد المحالفات في اوربّا ومن جمع الكلمة في لبنان . وكان واشدّ ما كان من استحكام العراقل والمعضلات اثا كان في السنة الرابعة جلاء الامير عن بلاده الى ايطاليا وبعد عودته من زيارته في الدامور ، وفي ذلك العهد عزل السلطان عثمان الثاني الحافظ احمد باشا قائد الحملة في لبنان وهو الدُّ عدوّ للامير . فباشرت الست تُنسب بانبلاج صبح الفرج وتدحرج عن صدرها حجرٌ ثقيل . فارسلت تخبر ابنها بما كان وتستقدمه من ارض غربته اذ لم يعد في البلاد ما يخشاه[1] .

(١) لمّا عُزل احمد باشا الحافظ عن منصب الولاية في الشام صار المنصب الى جركس باشا ، وفي الصدارة يومئذ محمد باشا الذي كان في حلب وهو صديق المنيين فوصّاه جم احسانًا . فاطلقَ الستّ الرهينة واعطاها رسالة الى ابنها يؤمنهُ ويستقدمهُ . فارسلت اليه الرسالة مع شهاب الدين بن عون والشيخ يوسف بن المسلماني. واخبرته بولاء الحاكم جركس باشا وألحفت عليه بالقدوم ، فلما وصلا كان الاميرُ في سيّنة لزيارة ملك اسبانيا فقضّ الرسالة الحاج كيوان وقرأها فرحل بعياله الى صيدا تمهيدًا لقدوم الامير ثم ابحر الامير بعياله وحاشيته فرست مراكبه في مياه عكاً في التاسع من شهر شوّال سنة ١٦١٧ فبدر اللبنانيون

فطفق الامير يتأهب للسفر ووجه رسالةً الى ملك اسبانيا يعلمهُ بعزمه على

للقائه وانوا به الى دير النمر في موكب عظيم وابهةٍ واحتفاء . واقبل الامراء والمشايخ والمقدّمون يسلّمون عليه ويقدّمون الهدايا من مالٍ وخيلٍ وجيادٍ وتحف وسلاح . وتعذر على بعض الامراء المجيء بانفسهم فاوفدوا اليه الوفود بالهدايا النفيسة واوفد يوسف باشا سيفا ولدهُ حسيناً صهر فخر الدين ومعهُ جوادان واقمشة حريرية وصوفية وصابون وغير ذلك . فقبل الامير هدايا الوفود وخلع على مقدّميها ولم يقبل هدية صهره وقال له : قلْ لابيك انا لانريد منه هدايا لكننا بحاجة الى اخشاب نعمّر بها دارنا التي احرقها حسين باشا في دير النمر والى مواشينا ومواشي تابعينا التي ارسلناها اليه وديعة من زمان الحافظ احمد باشا فضبطها لنفسه . ومن اسباب رفض الامير هدية ابن سيفا انه لمّا ارسل ابن العيسوف ومحمدًا بن كاوور على من ليكورته لاستطلاع طلع البلاد كتب اليه جميع الاعيان يسألون عنه الّا يوسف باشا سيفا فانهُ كتب لاخيه الامير يونس يقول : « إن اخاك لم يصر ذا مالٍ ولا رضيت عنه الدولة ولا عرف لهُ حالٌ » فانتهى الكلام الى فخر الدين فوجد على قائله . ورأى الامير البلاد في قبضة اخيه يونس وابنه علي فخنق فؤاده جذلاً ونشط لتنظيم الادارة والحكم اقرارًا للامن ونشرًا للمهابة وحسمًا لدابر الفساد . فولّى ابا نادر الخازني وذرّيته على كسروان ، وصادر المفسدين في بلاده ولا سيما العسّافين ، وخافه المجاورون اعتقادًا انّ بورق توسكانا سيمدّهُ بالمال والرجال كما امدّه بالمهندسين والمال .

على انّ الاميرين المتنين يونسَ وعليًّا لم يوطّنا لهما الحكم ظاهرهُ في غياب فخر الدين الّا لاستبسالهما في محاربة جنود الدولة ورجال احمد باشا الحافظ وسائر المناوئين من اليمنيين ، وقد ابليا في مواقع كثيرة كسروا فيها الحافظ وفتكا برجاله فتكًا ذريعًا واطلقا في اموالهم ايدي السلب فغنما شيئًا كثيرًا . ولمّا ولي الشام جركس باشا خلفا لاحمد باشا الحافظ ردّ الى المتنين حكم صفد وصيدا تولّاهُ الامير عليّ فكان هو في صيدا وعمهُ الامير يونس في دير النمر . وتقوّى الامير عليّ وكان بطلًا صنديدًا وقائدًا عظيمًا فزحف برجاله ورجال حلفائه من الامراء والمشايخ والمقدّمين على اهل الحزب اليمني فقهرهم واستولى على املاكهم وخرّب ديارهم ، ونفذ بعسكره الى بيروت فقتلوا على ضرها وخرج اليه اهلها فأمّنهم واخذ منهم غرةً ومالًا . وارسل رجال الشوف الى الجرد والغرب والمتن فاطلقوا فيها ايدي النهب وسلطوا عليها النار لان اهلها كانوا قد ضبوا الشوف في عهد الحافظ ، وارسل مملوكه زلفقار والشيخ ابانادر واخاه الشيخ يونس الى غزير فحكموا كسروان وكرّ هو راجعًا الى صيداء .

ثم ولّى عمّهُ الامير يونس على بلاد الشوف وبلاد بشارة . وقلّد الامير منذرًا التوخي حكم مدينة صيدا، وحكّم على المتن اللمعيين مقدّمي كفرسلوان . وولى الامير عليًّا الشهابي على بلاد الحولة ومرجعيون ملحقة بوادي التيم . واسندَ حكمَ بلاد صفد وبلاد الشقيف الى حسين البازجي، وحكمَ تواحي صيدا الى الشيخ حسين الطويل، ولم يرضَ احدٌ بنصيبه . غير انّ الامير عليًّا وعمه الامير يونس لم يكونا ليرهبا المصاعب بل يذللانها مهما تكن شديدة ومستعصية بعزيمة تفلُّ الحديد ورأي يخلّص بينَ الماء والراح . وما زالا على ذلك تارة يمتشقان الحسام وطورًا يستدانِ التدبيرَ والمداراةَ الى ان عاد فخر الدين والبلاد في قبضتهما على ما رأيتَ .

الرحيل الى بلاده ويودّعه ويذكّره بالعهد المقطوع بينهما ويسأله ان لا يخبّ عليه بالنجدة حين تقتضي الحال . فاتاه الجواب على وفق ما يرومه ويطمئن قلبه اليه . ووافى رومة واجتمع بالعلامة ابراهيم الحاقلاني واخبره بعزمه على الرحيل وتحدثا طويلًا في شؤون لبنان العزيز عليهما . واستأذنا على قداسة البابا ولبثا في حضرته نصف ساعة فجدّد الامير عهود امانته للايمان المسيحي وولائه للكرسي الرسولي ورعيه لمصالح المسيحيين في لبنان اسوةً بغيرهم من الرعايا . والتمس من الحبر الروماني ان يقبل الحاقلاني معتمدًا من قبله لدى قداسته . فاجابه الى ذلك واملى عليه نصائح حكيمة في ما ينظر الى شؤون الحكم والتدابير السياسية والحفاظ على الصبغة المسيحية من تقلبات الاحوال . ورقمها الامير على صفحات صدره . ثمّ بارك البابا وامدّه بعطية مالية ذات شأن قبلها شاكرًا وكرّ راجعًا الى الفراندوق كسموس فاقام عنده بضعة ايام تهيأ فيها للسفر وقضى لبانة من توديع صديقه الحميم وزوجة صديقه الفراندوقة كفيلته في العماد وسائر بيت كسموس الذين غمروه باحسانهم وحملوه فضلًا لم يغب ذكره عن ذهنه الى منتهى اجله . ثمّ وافى نابولي وواجه ملكها وخرج من امامه بحظوة كبيرة وهدايا نفيسة ، واقلع من هذه المدينة يوم لبنان بحاشيته الكثيرة في ٢٧ رمضان عام ١٦١٧ . فاستقبلت مراكبه ميناء عكاء في ٩ شوال من السنة نفسها ، وكان له مملوك يُدعى سرورًا عدّاء يسابق الريح فحمله رسائل الى اخيه الامير يونس وابنه الامير علي . فدفع اليه الرسائل وعنده الامير ناصر التنوخي ومقدّمو بيت ابي اللمع وجماعة من اكابر الشوف . فقرأ علي رسالة ابيه وهي بخط يده فاستطاره الفرح وكان عمه الامير يونس متغيبًا فارسل يبشره بقدوم اخيه فاقبل طائرًا باجنحة السرور ، ثم تُليت الرسائل على من هناك من الاعيان ونودي بالافراح فاهتزّت عاصمة لبنان وما جاورها من القرى واجتمع الناس الى ميدان البلدة الوفاً يهنئ بعضهم بعضاً ويغنون ويهزجون ويمرجون ويمرّقون البارود يومين كاملين وزُيّنت البيوت والشوارع باغصان الارز والصنوبر والزيتون والرايات اللبنانية . وجُليت المنازل في حلة من نور وطيف بالمشاعل على ضرب الطبول والدربكات ونقر الطنابير ونغمات الناي والسيابة والزمور ، وزغردة النساء . وصهيل الخيل والعاب الفروسية والمسابقة على عادة اللبنانيين في

افراحهم ، مهرجان شائق لم يُقم مثله عظمةً وابهةً وحشداً الى ذلك اليوم تجلت فيه محبة اهل البلاد لاميرهم الكبير واتحادهم قلباً وقالباً على العمل يداً واحدة لاعلاء شأن الوطن وتقرير عزه وتعظيم قوته ومهابته بتوحيد امارته والتأهب المستمر للذود عن حياده وتفديته بالارواح والمهج . رأيٌ واحد وامة واحدة على اختلاف مذاهبهم الدينية يشدهم معاً رباطٌ واحد متين هو النسبة الى لبنان وطن الجميع ، هو الاسم : لبنانيّ ، يُلفظ بالكرامة والفخر والاعتزاز . وبدر للملاقاة الامير الى ساحل عكاء ابنه ونحوه في موكب حافل من مشايخ الشوف ودير القمر وحشدٍ كبير من سكان القرى ، وانضم اليهم مشايخ بلاد صفد وبلاد بشارة وبلاد الشقيف وصيدا وعددٌ كبير من الامراء الشهابيين وآل حرفوش وغيرهم ، فبأوا الامير بسلامة الوصول وجاءوا به الى دير القمر تظللهم غمامة من دخان البارود بين الأهازيج والزلاغط والاناشيد مما لا يصنع مثله الا للملوك والفاتحين . وقد بلغ الهوس من الشباب اللبناني ان حملوه على مقعدٍ عالياً فوق الرؤوس وطافوا به ساحة العاصمة ثلاث دوراتٍ اعلاناً برفعة قدره وعلوّ منزلته واستمكان محبته في القلوب .

وكان الامير في غمرة هذا الفرح ومجالي هذا الاحتفاء متهلل الوجه مشرق الاسرّة تتفتح البسمات في ثغره وتستطلع انوار البشر في عينيه ولا يملك ضبط عواطف المحبة والشكر فتفيض من فؤاده دمعاً لذيذاً كدمع محبٍّ يلتقي بحبيب . غير ان بين ضلوعه حسرةً يكتمها وجذوةً لا يملك اخمادها : هيفاء لا تشهد هذا الاحتفاء ؛ عيناها لا تريان اشراق وجه الشوف بطلوع فخره ورجوع عزه . من يحمل الى مسمعيها اصوات هؤلاء المغنين والمنشدين . جميع النساء يرقصهنّ الفرحُ ويُبزهر الطربُ اعطافهنّ ، كلهن يصفقنّ بالاكفّ وينقرنّ بالدفوف ويزغردنّ ابتهاجاً الا انتِ يا اميرة النساء . انك صامتةٌ واجمةٌ لا يفترُّ ثغرك ولا تجذل نفسك ولا ينحبس دمعك . الاميرُ محفوفٌ بالكرامة والمجد والاميرةُ محبوسٌ عليها ترسف في سلاسل الهوان . ويحَ ابيكِ ما اظلمهُ وما افرغ قلبهُ من الحنان . هيفاء ظبية الوادي ولبوة الغاب لا تجزعي ولا تستسلمي الى القنوط ، فانّ الاسد متحفز للوثوب ويوم خلاصكِ قد دنا . ها أجل اغتمامك قد انقضى وميقات عزائك قد حان . وانت يا ابن سيفا لئن

اعتصمتَ بحصن الجوزا. فلاصعدنّ اليك بجناحي نسر وقلب هصور واحتزنّ عنقك واروينّ بدمك ظمأ هذا الحسام . لاشبعنّ من شحمك وحوش البرّية ومن كبدك طير السماء . جالت هذه الافكار في خاطره وغلت في صدره مراجل الحقد وتأججت في قلبه نار البغضاء . وتطاير من عينيه شرار الغضب واحس بين ضلوعه باحتراق . فوضع يده على صدره فاصابت ذخيرة عود الصليب الكريم . فذكر رحمة المسيح وحلمه وقال : ما هذا الشرّ الذي افكر فيه وانا مسيحيٌّ . اليكِ عني يا شهوة الثأر والانتقام ، ليردّ الله اليّ هيفاء حية واخزِ الظالمين البغاة .

ثمّ اخذ الناس يتقاطرون للتسليم عليه من جميع انحاء البلاد وفيهم الامراء والمشايخ والمقدّمون يحملون اليه الهدايا النفيسة من ذهب وفضة وماشية وخيل وسلاح فيحسن وفادتهم ويلقاهم بما فُطر عليه من الهشاشة والبشّ ويغدق عليهم الخلع ويكرم ضيافتهم فينصرفون من عنده شاكرين حامدين مسرورين داعين . وممن قدم عليه بالهدايا الامير عليّ الشهابيّ ووالداه محمد وقاسم ، والامير احمد بن يوسف الحرفوشيّ جاءه بعتاق الخيل ، وممن تعذر عليه القدوم في ذلك الحين فاوفدوا اليه يهنئونه ويهدون اليه خيلًا. الامير احمد الشهابي اوفد ابنه الامير سلمان . والامير احمد طربيه والامير قنصوه اوفد كلٌّ منهما مدبّره بخيل وسلاح . فتقبل هداياهم وارسل اليهم الخلع . ثم جال في البلاد جولةً وزار الامراء والاقطاب والاعيان وتفقد القلاع والقرات والمعدات والمالية وسائر ما ينظر الى تعزيز السلطة واجراء العدالة واقرار الامن . وكان في رحلته هذه بلاقي من ضروب الحفاوة والاجلال ما لا يحيط بكمال ابهته وصف . وكانت هذه الاحداث تتصل بمسامع يوسف باشا سيفا واشياعه فتقع عليهم وقع الصواعق وتصير محور احاديثهم وتتنقل على ألسن النساء الى الاميرة هيفاء. فتسيل على قلبها فرحاً وتودُّ لو استطاعت ان تبعث روحها ترفرف حول الامير وتتنعم بمشهد مجده المشرق وعزّه الرفيع . وكانت على تأميلها بقرب الفرج لا تبرح نفسها هدفاً لعاملين متناقضين الحزن والفرح فهي تضحك وتبكي في آنٍ واحدٍ . ولما اتم الامير جولته عاد الى منزله في دير القمر وقد علم ان البلاد باسرها نازلةٌ عند ارادته ومجموعةٌ في قبضته .

١٧

زهد الامير على آل سيفا وانقاذ هيفاء

لو شاء الامير بعد عوده من اوربّة ان يتوسد الراحة ويتمتع بلذات الامارة واعجادهـا قانعاً بما حصل له من السلطة والسيادة في بلاد الشوف وغيرها من الاقاليم المجاورة التي دانت لسلطانه او اتصلت به بصداقة او محالفة او معاهدة لاستطاع ان يتنعم بثمار السلام في ما بقي له من العمر ، ولما أعجزه ان يشتري رضا الباب العالي ويأمن شرّ حسّاده ومناوئيه ، لكن نفسه كانت اكبر من ان ترضى بهذا القدَر من الحظ الذي لا تُستكمل معه سعادة الوطن اللبناني ، فأبى وهو صاحب الهمّة القعساء والعزيمة الحذّاء. الا ان يجـابه الشدائد ويقتحم المخاطر في سبيل الغرض الوطني الشريف. ألا وهو من اجله ركب البحار وعانى الاسفار وعقد المحالفات . واذ كان على جانب عظيم من الحكمة لم يكن ليخطوَ خطوة واحدة في طريق الفتح الا بعد التروّي والتبصر وإعداد الاهبة لئلا يجازف بما لديه من قوة مُقدماً على حروب مستورة العواقب بستار الابهام. فتظاهر اولاً بمسالمة الدولة ليأمن صولتها . وبدأ بنظم الجيش والمالية على نحو ما رأى في بلاد المسيحيين. حتى اذا تمّت له الاهبة على ما يروم ووثق بحصول القوة للقتال عقد القلب على محاربة الولاة واحدًا واحدًا لئلا يتضافروا عليه . وأول من صمم على قتالهم آل سيفا لما لهم من قوة الصولة وبسطة العزّ . وما يرمون اليه من عرقلة مساعيه واحباط جهده في توحيد الامارة في لبنان . فضلاً عمّا بنفس كبيرهم يوسف باشا من الطموح الى حكم الشوف ومـدّ رواق السيطرة على اقاليم الجنوب . وكان فخر الدين قد ارسل الى يوسف يطلب زوجته المتنازلة عنده فردّ طلبه وانكر كونها في حوزته. فزاد ذلك في حفيظة الامير واذكى جذوة مقته للسيفي واستعجل تسيير الحملة عليه . وكان قبل فراره الى اوربة قد عقد العزم على ضرب ذلك العدوّ المتصلف الضربة القاضية انتقاماً منه لكلمة استهزاء واستخفاف بلغه انه قالها فيه . فلم تسعده الحال في ذلك الزمان . حكاية ذلك : ان ارملة لبنانية أتت الامير فخر الدين تشكو اليه من والي حلب انه اعتقل وحيدها جورًا بتهمة التجسّس . فأنفـذ الامير

رسالة الى الوالي يطلب التخلية عن الشاب . فرد الوالي الرسول بغير جواب. فحنق الامير وركب في سبعين فارساً من اشدّ رجال البأس والقتال وتيمم بهم حلب لانقاذ الصبيّ . فنزلوا ليلة في بقعة من ارض عكار وجلسوا حول نار مشبوبة يصطلون، وانهم لكذلك اذ طلع عليهم شاب طويل القامة قويّ البنية بَدين . فقالوا : مَن تكون ؟ قال : لبنانياً اعتقلني والي حلب بتهمة التجسس . فراسله الامير فخر الدين فأطلق سراحي وانا مماض الى الامير لاشكره ، أبصرتُ ناركم من بعيد فقصدتها لعلي اجد حولها مَن يخرجني من وحشة الغربة والظلام . فدُهش الامير من هذه الصدفة وقال : انتَ لدى الامير مجيرك ، وها انا ماضٍ بهذه الكوكبة من اخوانك اللبنانيين اولي البأس لانقاذك وردك الى امّك الكسيرة القلب اشفاقاً عليك . فوقع الصبيُّ على قدمي امير يقبّلها ويبلها بدموع الشكر داعياً له بالنصر وطول العمر ، ثم انتصب قائماً وقال : مَن مثلك في حكام الارض وانت تركب المخاطر لترفع الضيم عن آخر انسان من رعيتك : انك لوالد وأحنّ من والد ، عِش يا امير الامراء مفدّى بالمهج والارواح .

كانت هيفاء في ذلك الحين عند ابيها تزور اهلها في عكّار، ورأى الامير ان يعرّج على بيت حميه فأقام عنده ثلاثة ايام فأبصر في وجه الاميرة قطوباً فسألها فقالت سأخبرك . قم بنا الآن نخرج من هذا البيت . فلمّا انتهيا الى دير القمر ، قالت له : كنتُ في مجلس أبي ومعي نساء اخذن يفاخرن بأزواجهنّ ففاخرتُ بك على مسمعه ، فهزّ رأسه وقال . ايهذا البعل تفاخرنا يا هيفاء ! حِذارِ دِمَّةُ لو وقعت البيضة من قفاه الى الارض لما انكسرت . فغاظني استهزاؤه الوقوح وخرجت من مجلسه وانا لا أميّز طريقي من البكاء. وعزمت على الرحيل لساعتي حتى لا أرى بعدُ وجه معيّري ولا اسمع صوته المسموم واذا بك مقبل فكظمت غيظي وحبست لساني لئلا اوقع بينكما شرّاً وانا مشفقة عليك من الغدر في ذلك البيت . فلمّا سمع الامير هذا الكلام أخذته سورة الغضب حتى ارتجت شعثاه وقال: يعيّرني بقصر القامة ودمامة الخلق ! ما عابني ان اكون قصير القامة وانا صاحب العزم المرهف والقلب الحديد والسيف الطويل والرأي الاصيل . انا القائل عن نفسي بلسان عنترة كبير فرسان العرب :

يعيّرني العدا بسواد جلدي وبيض فعائلي تمحو السوادَ

واقسم لينتقمنّ من ابن سيفا ، وقال انشودة تهديد لم يبرح اللبنانيون يتغنون بها الى اليوم ، وهي :

نحن صغار وفي وجه العدوّ كبار انتم خشب خور نحنا للخشب منشار
بحق طيبا وزمزم والنبي المختار ما بعتركْ يا دير الّا من حجر عكار[1]

وشاع كلامه هذا في جميع الانحاء اللبنانية وجرى على ألسن الكبار والصغار.

فلمّا اتاه جواب حميه على ما رأيتَ تذكّر عزمه السابق واقسم ليقهرنّ ابن سيفا ويخربنّ دياره ويحملنّ من حجارتها الى دير القمر .

وكان على ولاية طرابلس رضا عمر باشا الكنجي فرأى الامير الّا يوقد الحرب على خصمه بغير رضا الوالي لئلا يصير عوناً لخصمه عليه . فأطلق عقارب السعاية وأرسل ألسن الشكاية من يوسف باشا لدى الوالي المذكور وما زال حتى استوثق من رضاه واوغر صدره على ابن سيفا وتأكد من انه سيناصره عليه . فجعل يركّ للحرب وقودها ويعدّ لها معدّاتها . وأمر فخُصّص البارود وشُحذت السيوف. ثم جمع الاعيان والاعيان فقرّر رأيهم على مباغتة يوسف باشا سيفا بالرجال والاطباق عليه من كل صوب حتى لا يجد متنفّساً الى النجاة.

وقبل ان يحشد الامير الرجال وينظّم الحملة اوعز الى الشيخ ابي نادر الخازني ان يُرسل رجالًا الى نهر ابراهيم يضبطون المعبر على الذاهبين الى الشمال مخافة ان يبلغ ابن سيفا خبر التدبير على هلاكه. وسار الامير من صيدا الى بيروت وبثّ منها رسائله الى الامراء والمشايخ يستنفرهم على السيفيين ، واستدعى اليه

---

١) كان السيفيون يعيّرون زوجاتهم المنيات بدماثة منظر الامير فخر الدين ، وعرف الامير ان ابنته قالت لهم في احدى الجلسات من نوع الموالبا :

عيّروني بقصرك قلت عود التبر والخصر خصر الغزال والعنق شامخ شبر
قولوا لاهل الذكا قولوا لاهل المُبر القلم يجمع الدنيا ولو كان طولو شبر

فبعث المنيّ الى السيفيين يقول :

نحنا صغار وفي عين العدوّ كبار انتم خشب خور نحنا للخشب منشار
وحق طيبا وزمزم والنبي المختار ما بعيّر الدير الّا من حجر عكار

(عن مجلة الاثار)

رجال الشوف والغرب والجرد وكسروان ، وكتب لابنه عليّ ان يمشي الى غزير برجال القتال من بلاد صفد وبشاره وصيدا والشقيف وارسل الى الامير عليّ الشهابي ليجيء برجاله الى غزير وينضمّ الى ابنه عليّ . وكتب الى الامير يوسف الحرفوشي ان يضبط ما لآل سيفا من غلال وماشية في القبرانية والهرمل . وزحف هو بعسكره على جبيل[1] فأميون فقلعة بجمون في الضنية واحتلّ هذه الاماكن بلا مقاومة ولا قتال .

١) تلخيص من مجلة الآثار عن المؤرّخين : جمع الامير رجاله وقام من بيروت الى نهر ابراهيم ومنها الى جبيل فبات فيها . ووجد بكياشيّين من رجال يوسف باشا فطلب ان يسلّما قلعتها وقلعة سرجبيل فأبيا . فسار الى اميون في الكورة وكانت من معاملة طرابلس ولما اصبح مشى بعساكره الى قلعة بجمون من بلاد الضنية ، ثم الى قرية قبولا ، ومنها سار بنفسه ومعه ثلاثمئة فارس من سكبانه لاستكشاف شؤون عكار . فصاروا مقابلها عند مغيب الشمس فلما احلولك الليل اجروا عشرة مشاعيل خارجة من عكار الى حصن الاكراد ، فظنوا انها موقدة امام ابن سيفا . فترجّل فخر الدين ومشى قدّام رجاله في طريق صعب واستحافهم ان يجدوا في طلب ابن سيفا الفارّ ولا يشتغلوا عنه بالغنائم ، فاتجهوا الى عكار تحت الظلام باحثين عن ابن سيفا فلم يعثروا عليه ، وكان للحصن طريقان سار السيفيُّ على احدهما وسيّر احمالهُ وانثاله على الآخر . ولما سمع هرج الناس اطفاء المشاعل والتقى المعنيّ ورجالُهُ بالاحمال فنشوها وهي نقودٌ وآنية ذهبية وفضيّة وطناقس عجمية واسلحةٌ وملابس حريرية شيء كثير وثمين . والتقوا بالحريم فلم يتصدّوا لهنّ . وسار المعنيّ بنفر من جماعته الى قرية شدره وخلّى معظم رجاله في عكار فنهبوها . وقاتلوا الشيخ مطر المنداري فقهروهُ . ثمّ عاد المعني وجمع رجاله ودخل عكار صباح يوم الاحد ١٧ صفر سنة ١٠٢٨ هـ. ١٦١٨ م. فوجد عسكره قد نهب قصر يوسف باشا . وأبدى الاميرُ جرأةً غريبةً في هذه المهاجمة . وكان الامير محمدٌ بن حسين باشا ابن يوسف باشا تحمله جماعة الى جدّه في عكار فامسكهُ رجال المعني فارسل الامير الى امه يخبرها عنه وكانت في حارة سير من معاملة الضنية . ثمّ نقلها الى عكّار وهي شقيقة صديقه علي باشا جنبلاط . وانفذ الى ابنه عليّ يخبره بدخوله عكّار وانهزام السيفي وطلب ان يرسل العسكر المجموع من صفد والمتاولة بقيادة الامير عليّ الشهابيّ الى قلعة الحصن وان يبقى هو في حارة غزير ففعل ما امرهُ به . الّا ان فخر الدين لبث اربعة ايام في عكّار ثمّ امرَ رجالَه بالسير لمحاصرة السيفي . وكان يوم مطر فلم يرافقهُ غير الف من السكبان وابناء العرب . فبات في شدره وسار منها الى مقابل الحصن . فرأى جميع الامراء السيفيين صافّين رجالهم للقتال فندم على تسرعه . وابى ان يتقهقر فهجم وقتلَ منهم خلقاً كثيراً وفرّ الباقون ، ودخل يوسف باشا بجميع اولاده وانسبائه الى القلعة واغلقوا المدخل بلا ميرة ولا ذخيرة . اما الامير محمدٌ واخوه سليمان ابنا اخ يوسف باشا فاعتزما الى جبلة قرب اللاذقية . واما الشيخ مظفرٌ ومقدّم بني الصواف وكانوا نزلاء السيفيين

وكان ابنه الامير علي وحليفه الامير علي الشهابي قد أنزلا عسكرهما في غزير . وتربص فخر الدين في قلعة بخعون وسيّر شرذمة من رجال دير القمر في طريق عكار للاستكشاف والكبس فوقعوا في الطريق على نفر من عسكر يوسف سيفا فيهم حفيده الامير محمد بن حسين . فدبّ الذعر في قلوب هؤلاء وتفرقوا عن اميرهم هاربين في كل وجه ، فأمسكه الديريّون ولاطفوه مراعاةً لحداثته ، وكان ابن خمسة اعوام واتوا به الى فخر الدين فرؤف بحداثته ورحم قلب والدته فأرسل يقول لها : لا تشفقي عليه من شرّ فانه في رعايتي .

وامر يوسف باشا بنقل حريمه وما هان حمله من ثمين المتاع الى قلعة الحصن

فدخلوها بجميع رجالهم . وبلغ نجدة الامير عليّ فحاصر المعنيُّ القلعة وجعل يفند المتاريس بنفسه ويشدّد العسكر . ثمّ وصل عمر باشا والي طرابلس برجاله وارسل الامير يونس الحرفوشيّ من بعلبك اربعة بكباشية من سكبانه ، فضايقوا السيفيّ ومن معهُ ولبس لهم مبرة فاكلوا لحوم الخيل . ثم طلبوا الامان فأمّنهم المعنيُّ والوالي على دفع ٣٠٠ الف قرش نصفها للمعنيّ لقاء دينهِ الذي بذمة السيفي من محصول بيروت وغزير والبلاد التي ضبطها وكانت لابنهِ عليّ ومن الموانئ التي أودعت عندهُ . والنصف الآخر لحاكم طرابلس ، وأرسل السيفي ولدهُ الامير بلُك يتعهد لها بالدفع فأبيا ان يرفعا الحصار ما لم يصر المال الى ايديهم وتذكّر المعنيُّ الاساءة الماضية فتأخر عن المصالحة وسار بثلة فارس من رجاله الى عكار . وترك الباقين في الحصار . وارسل الامير محمداً الذي اعتقلهُ ووالدتهُ الجبلاطية الى حارة الناعمة (الدامور) وتقدم بثلاثين امرهم بهدم قصور السيفيين ودورهم . فبقوا نحو شهر حتى قوّضوها ونقلوا حجارتها الى طرابلس ومنها الى بيروت فدير القمر فبنى بها بعض ابنية المعنيين الباقية الى اليوم ، برًّا بيمينهِ التي اقسمها . واستبقى دار الامير محمد ابن الامير عليّ وهو حفيده ابن بنتهِ . وكانت عكار القديمة التي هدمها اذ ذاك شرقي قرية (بيدر) الآن الى الجنوب . ولا تزال اسوارها مبيّنة . والحجارة التي نقلها الى دير القمر منحوتة ولا تزال بارزة في الطبقة الارضية من دار السيد انطون عبد البستاني وفي بناء المرج .. وهو اكبر دار للمعنيين في دير القمر . سمّاه « المرج » الشهابيون لمرجهم فيه الخيول .

ثمّ طلب تسليم قلعتي جبيل وسرجبيل فسلّمتا ، وهدم قلعة جبيل وكانت شامخة البناء . واشتد الضيق على يوسف باشا وقد كبرت سنّهُ فالحّ على المعنيّ في مصالحته فلم يصالحهُ ، وكان السيفي قد استصرخ مصطفى باشا والي الشام والبكباشي كرد حمزه وهما من اصدقائه فقدما برجالهما الى القصير قرب حمص ، ووصل محمّد باشا أباظه والي حلب الى مدينة حماة بعسكره فارسلوا الى المعنيّ والطرابلسي ان يرفعا الحصار فصار الاتفاق على مئة الف قرش يدفع نصفها للمعني والنصف الآخر لوالي طرابلس ، واتفق هذان على ارسال هذا المال الى الاستانة . فرضي السلطان عن المعنيّ لذلك .

وعزّزها بجامية قوية وخرج واجتاز بعسكره نهر عكار وزحف فخر الدين بعسكره فتقابل الجيشان ودارت رحى القتال زهاء ساعتين فدارت الدوائر على عسكر ابن سيفا فأمر بالتقهقر الى ما وراء العدوة الاخرى من النهر وكانت المياه غزيرة غامرة فاجتازوا على جسر وهدموه لساعتهم . وجدّ عسكر الامير في اثرهم الى النهر فوقفوا لا يجرأون على عبوره . واشفق الامير من فوات فرصة الانتصار فاستحثّ نخوتهم فلبثوا مترددين . وكان حول الامير سبعة رجال من اشدّ رجال الحرب لا يفارقونه قدّ احدهم سراويله من الساقين وشمّر ورتب الى النهر فعبره ، وفعل فعله رفاقه الستة ، فانبعثت جرأة العسكر وتوامروا الى الماء بثيابهم ، وقال الامير : من هذا البطل الذي اقتحم النهر اولًا ؟ قالوا يوسف الخوري الديراني . قال : انه لحريٌّ ذكرٌ وخوّاض غمرات ، والله لاثيبنّه اعظم ثواب . ثم اصطفت رجال السيفي تصلهم نارًا حامية قبل ان يتمكنوا من تنظيم صفوفهم ، فنزل التشويش في عسكر الامير واخذوا يتقهقرون الّا المشمّر لم يتزحزح من موقفه لبث يرمي العدوّ من وراء صخرة ، فلما رأى ذلك رفاقه الستة حسدوه وكرهوا ان يكونوا دونه جرأة وإقداماً ، فكرّوا على اعدائهم مستبسلين ، وصاح الامير في عسكره صيحة ارتجت لها الارض وقال : اليوم يومكم يا حماة لبنان ، يا رجال الامير ! فانقلبوا على العدوّ كالسيل الجارف وأرسلوا من زئيرهم رعدًا قاصفاً والتحم الجيشان فصلصلت السيوف على الرؤوس ، وتسابقت الاسنة الى الصدور ، وروّيت الخناجر من دم المهج . وحطّمت العظام بالقوّص ، ووطئت الخيل بساطاً من الجثث ، وما هي الّا ساعة حتى لمعت بروق النصر من سيوف المعنيين ، وانهزم السيفيون شرّ هزيمة وتفرّقوا مشتتين في السهل والجبل ، وخيّم الظلام فتوارى ابن سيفا عن عيون طالبيه . ولاح انه متجه ببقية عسكره جهة قلعة الحصن ، فجدّ الامير في اثره بثلاثة فارس من رجاله وبينما هو في الطريق يتعقبه اذا عشرة مشاعيل تظهر من بعيد خارجة من عكار ووجهتها القلعة فظنّ ان هناك عدوّه في شرذمة من عسكره فادركهم فاذا النساء والاحمال فأوعز الى رجاله ان يأخذوا الاحمال واستحلفهم بالشرف اللبناني ألّا يتصدّوا للنساء فانفذوا ارادته . وكان يوسف باشا ورجاله غير بعيدين من ذلك الموضع ، لكنه اطفأ المشاعيل حتى لا يُرى وتخلى عن حريمه

طلباً للنجاة . ودخل عسكر الامير عكار واطلقوا فيها أيدي النهب وترفعوا عن التصدي للنساء والاولاد ثم خرجوا في طريق الحصن وكان الامير قد سبقهم اليه بفرسانه ، فاذا أمامه امراء آل سيفا ورجالهم وبنو الصوّاف مقدّمو المتن برجالهم ، وكانوا مصطفين للقتال ، فلم يرهب كثرة العدد بل استلّ سيفه وارسل صوته زئير اسد ، وقال : عليهم يا رجال البأس ، ليتّق النصر للكثرة انّما النصر من الله لمن شاء، النصر للسواعد القوية والقلوب الجريئة وللصامدين الصابرين ، وثبة السباع ومزّقوهم يا اسود المعنيّ ! انقضّ هو وفرسانه انقضاض الشواهين على صغار الطير ، فارتخت ركبُ العسافين ووهت عزائمهم وسالت قلوبهم خوفاً فانهزموا الى القلعة لا يلوون على شيء ودخلوها متدافعين واقفل الباب . فأحدقت عساكر الامير بالحصن واتخذوا لهم متاريس منيعة وحفرًا وخنادق. وشدّدوا الحصار حتى عجز المحاصرون عن صدّهم ونزل الوهن بعزيمة ابن سيفا وايقن بانه مغلوب ، فشاور مَن معه في التسليم فقالوا : ذلك اقرب الى السلامة . فأرسل عياء كتبه زوجة ابنه حسن الى ابيها فخر الدين في زمرة من النساء فدخلت بهنّ اليه وهو في خيمته وقبّلت يدَه وقالت : ان نلت حظوة لدى سيدي الامير فهب لي آل سيفا . فمسح بكفه على شعرها الذهبيّ وقال : ما يحملك على هذه الشفاعة وقد رامرا هلاكنا ؟ قالت : الرحمة والرحم . قال أما والله لو حالفَ النصر حماكِ واستوهبه ارواحنا كل اهل الارض لما حجب نقطة من دمنا . قالت : لا خلة افضل من العفو عند المقدرة ولا زينة لذي السلطان اجمل من الحلم ، وانت ايها الامير قمين بكل خلة كريمة وصنع جميل، وقد اتيتك اسألك العفو عن اعدائك الذين اذلّهم الله بين يديك ، فلا تكسر خاطر امتك لئلا يقال لا شأن لابنة فخر الدين عند ابيها فأصغر في عين نفسي وفي عيون هؤلاء السيدات . فلان قلبه وقال : وهبتهم لكِ ولعاجباتكِ ، فلن نحمل على حياتهم بأذى ، ولكن نجرّدهم من اسباب الصولة والحول حتى لا تعود لهم قدرة على الإفساد . فقبّلت يده ورأسه وقالت : مثل الامير حقيق بكل حلم وجود . ثم لمعت عيناه بشرًا وقال : أين الاميرة هيفاء ؟ فبُهتت من سؤاله وقالت : ألعلّ هيفاء عندنا ؟ قال : اوليست في الحصن ؟ قالت : لم أرها ، من اتى بها الى الحصن ؟ فاربدّ وجه الامير وبيس حلقه وشفتاه

وضرب كفا على كفّ وقال : أنتقم بعد ما عفونا ؟ فحزنت عليها اذ رأت اباها على هذه الحال ، وقالت : بروحي انت يا ابي ، ماذا يغتك من جهة هيفاء ؟ ما شأنها ، أليست في احدى قلاعك او في دارك بدير القمر ، لقد كنت احسب انها الى جانبك مدة تغيبك عن البلاد ، فما هذا الذي اسمعه من سؤالك واراه من قلقك ؟ فاخذها من يدها الى ناحية وقصّ عليها القصة فتعجبت ، وقالت : لعلّها في الحصن وانا لا ادري . قال : ننظر في الامر . وصرفها مع رفيقاتها وأمن آل سيفا على ارواحهم فخرجوا اليه مسلّمين وامتلك الحصن وعرّاهم من كل قوّة للقتال وفرض عليهم غرامة كبيرة،فلمّا قبضها خلّى سبيلهم الّا يوسف باشا استوقفه وقال له :ماذا صنعت بهيفاء ما ذنبها فاعتقلتها وملأت قلبها ذعرًا ونفسها غمًّا ، اين هذا من المروءة والحنان الوالدي ، لقد وقع نساؤك في قبضتي وقبضة رجالي فهل تصدينا لهنّ بسوء ، ابت المروءة إلا ان نرأف بضعفهنّ ونخلي سبيلهنّ وهنّ غريبات عنّا وعدوّات لنا ولو شئنا لخلّيناك لا تراهنّ ، وانت تستأجر لصوص البحر ليسبوا بنتك وهي عرضك ومن لحمك ودمك ، .فعلتَ ذلك نكاية لنا واستهانة بقدرنا ، وقدّر لنا ان نقصر يدًا عنك ردحاً من الدهر فصبرنا على حكم القدَر ، ولما ادركناك عفونا عنك تكرماً مع القدرة عليك افتطعم في حلمنا حتى لا تردّ علينا زوجتنا وقد اخذتها كسبيّة ، انّ روحك بدلُها فتبصّر ، هيهات ان ينفعك الإصرار .

قال الباشا وفي وجهه ولفظه امارات الندم والخشوع : اعلم يا امير اني آسف على ما فات ، ما باعدني عنك في ما مضى بغض لك في قلبي ولا ازدراء بقدرك ولا طمع في حلك وبلادك ، انما ساقني الى معاداتك حبّ السيادة في بلادي وخوفي عليها من سطوتك، أما اتهامك اياي بانّي استأجرت قرصاناً لقتال رجالك ونهب مراكبك وما استطاعوا الّا اعتقال ابنتي فما يزيد على ان يكون وهماً ساقه الى ذهنك ظاهر الحال، والواقع ان تلك النذالة احقر من ان تخطر لي في بال،إني لاكبر من ان اقدم على مثلها دنيئة تلبسني العار والندم والهوان، انما فعل ذلك القرصان على دأبهم من التصدي لركاب البحر لا بأمري فعلوا ولا بعلمي ولا برضاي . فلما اعتقلوا هيفاء مالوا بها الى جزيرة ارواد وارسلوا اليّ يطلبون فديتها عشرين الف دينار . فاستأجرتُ مركبين من طرابلس وسرت

عليهم برجال القتال : فلما دنونا منهم وقف زعيمهم مشتهراً سيفه وقال : ألقتالنا اتيتم ؟ انا لخطكم مستعدون . فاعلموا اني عند اول اشارة عداء تبدونها تكون اميرتكم هيفاء اولى ضحية منكم نقربها على مذبح الانتقام. ابقر بطنها بهذا السيف واخضخضه في احشائها بلا رحمة والقي جثتها في البحر طعاماً للسمك . ثم نخطركم وابلاً من رصاصنا فاما نكسرهم شر كسرة ونسلبكم حتى ما يستركم من ثياب واما ان ترجع كفتكم فتنهزم من وجوهكم ، وفلاة البحر واسعة وسلامتنا مضمونة وسلامتكم في خطر وانتم في الحالين خاسرون . ما نحن بلصوص كما تتوهمون ، نحن جنود أمرنا بتعقب فخرالدين فلما لم نجده في المركب اعتقلنا زوجته لنأخذها بدلا منه الى الاميرال. لكنّ ما رأيته من بكائها وإعوالها والاغماء عليها من شدة الخوف والحزن ألان قلبي وأثّر في نفسي فرحمتها ورثيت لحالها وقلتُ اسلّمها الى اهلها على شرط ان يؤدوا فديتها عشرين الف دينار . فلما تحققتُ انه لا يداور ولا يزح في تهديده قلتُ له بل نؤدي الفدية ونحقن الدماء. لكننا لا نملك سوى الف دينار . قال : حسبُ . هاتها . فرميتُ اليه صرةً فيها الف دينار . عدّها وسلّم الينا هيفاء . وعُدنا الى عكار فرحين، ثمّ اني حسبتُ للمستقبل الف حساب . قلت : لئن عاد فخر الدين من اوربة تزيا ووطأ اله السعد كنفهُ ليدأنّ حروبه في ارضي لانه طامعٌ في بلادي ومصمم على هلاكي. فالرأي ان اعتقل زوجته رهينةً . فان قهرني اشترتني منه كما اشتريتها من اللصوص. وان قهرتهُ عفوت عنه وردّيت زوجته عليه . فادخلتها الحصن وكتمتُ امرها. فاقامت فيه مع وصيفاتها وصديقاتٍ لها تخرج وتدخل مخفورة. لكنها مغموسة في الترف والنعم . ذاك الى يوم تحصنت فيه برجالي هرباً من وجهك فطلبتها ولم اجدها وسألت فقيل انها توارت يوم عكار ولا يُعرف كيف خرجت ولا اين اتجهت. فلطمت وجهي وقلتُ ما اقل حظي ! أملتُ ان يكون اعتقالها لسلامتي فصار لعطبي . ها قد صدقتك الخبر وانا الآن في اسرك وقبضتك فان شئت عفوت والعفو اجمل والا فلك ما تشاء . هيفاء زوجتك وهي ايضاً ولدي وما كان قلب الوالد باقل حنواً من قلب الزوج . فاطرق الامير هنيهةً يتأمل ورأى بيان حميه اقرب الى الصدق لانه لا مغنم له في اخفاء بنتهِ بعد ما صار اليه من ذلّ

الانكسار وتقوض العز وخراب الديار وخسارة المال والرجال . فخلّى عنه . وامر رجاله فحملوا من خرائب عكار حجارةً صفراء اللون الى ساحل البحر فنقلت في مراكب الى بيروت ثمَّ على عواتق الرجال الى دير القمر ذكرًا لانتصاره على آل سيفا وبرًّا بيمينه التي اقسما . وبثّ رسله في بلاد عكار ينشدون هيفاء فلم يعثروا عليها . فرجع بعسكره الى قاعدة حكمه متهلل الوجه بانتصاره العظيم ومكتئب النفس بخيبته من جهة هيفاء .

١٨

من قلعة الحصن الى قلعة الشام

علمتْ هيفاء وهي في قلعة الحصن بنشوب المعارك في عكار وان الدوائر دائرة على السيفيين ، وشاع في القلعة ان اباها مصممٌ على ارسالها الى حلب . حتى اذا تم النصر للمعني لا يأخذها بلا شرط،على قبوله يترتب تسليمها اليه . فاخذت تنظر في وجوه الحيلة للنجاة من هذا الخطب الجديد. وكان على رأس الحامية قائد حسن الاخلاق بكت لديه وتوسلت اليه ان يفتح لها الباب لعلها تنفذ الى معسكر المعنيين وتنفحه لقاء اخلاء سبيلها خمسة الاف قرش ، وكان القائد كبير النفس غزير المروّة فرؤف بها وقال لها : ان للامير فخر الدين فضلًا عليّ لا اجحده . ودينًا اتوق الى ايفائه . ذلك ان ابي وقع في اسر احمد باشا الحافظ والي دمشق وعزم الوالي على قتله فافتداه الامير بمئة دينار وفرس كريم وردّه سالمًا الى عياله . فانا صانع اليك خيرًا من اجل المعروف الذي صنعه زوجك الى ابي ، لا يحسن ان افتح لك باب القلعة لان بفتحه خطرًا عليك وعليّ ايضًا . اما عليك فلصعوبة البلوغ عبر الجيوش الى من تروميين . واما عليّ فلجواز ان اتهم بالخيانة او بالتقصير . غير اني فاتح لك مخرجًا آخر لا خطر فيه عليك . وتارك لك المال ايفاء لدين الاحسان الذي لزوجك الامير على ابي وعليّ . ثم انه استدعى رجلين من اهل ثقته وقال لهما: امضيا بالاميرة وجواريها الثلاث في هذا الدهليز الى آخره ، فاذا نفذتم منه الى الوادي فسيرا معهنّ الى معسكر المعنيّ وقد وكلت حياة الاميرة وراحتها الى شرفكما وجرأتكما فكونا لها اخوين وحارسين . فسارا بهن في الدهليز الى

وادٍ على مسيرة ميل من القلعة وتوجها بهن من ناحية الشمال والشمس وراء حجاب المغيب ، وكان الوادي قصيراً فاجتازوه قبل مداهمة الظلام ، وساروا في السهل ساعة وهم لا يعرفون طريقاً ولا يدرون كيف يذهبون . فجلسوا واوقدوا ناراً يصطلون بها ويأنسون . واذا كوكبة من الفرسان اقبلوا عليهم وكانوا من اعوان السيفي . فسألوا الرجلين من تكونان وما شأن هؤلاء النساء فلم يأخذوا جواباً شافياً . فقالوا انتما من رجال المعني وهنّ من نسائه . فقبضوا على جميعهم واستاقوهم الى القصير واتوا بهم الى مصطفى باشا الذي كان السيفي قد استنجده فوافى بعسكره الى القصير لمناصرة على المعني ، فخلّى الوالي عن الرجلين وارسل النساء مخفورات الى الشام وامر باعتقالهن في القلعة الى ان ينظر في امرهنّ . ووصى بالاميرة خيراً فلم ينلها ورفيقاتها ضيم في معتقلهنّ غير ان هيفاء التي انتقلت من الرمضاء الى النار تقطع قلبها غمّاً لما اصابها من فشل الخطة ، وعضت اصابعها ندماً على ما جرّت على نفسها من بلاء لخروجها من حصن الاكراد قبل ان تخفق اعلام النصر على خيام المعنيين ، فجلست على الحضيض وذرت على رأسها التراب وابت ان تذوق طعاماً ثلاثة ايام ، وكانت تشهق في البكاء وتندب نكد الطالع ، فتنفخت اخفاتها من طول البكاء . واخذت جاريتاها يعالجن كشف غمها بانواع التعزيات والتسليات والتأميل فلا تملك الاصغاء اليهنّ حتى بلغ منها الجوع والحزن واشرفت على التلف ، فبكينَ لبكائها حتى نضبت مجاري دموعهن . وما انقضى لهنّ اسبوع على هذا الحال حتى زال الوهن بقوى هيفاء ، واستحوذ عليها الشحوب ونال من نضارة شبابها الذبول وخمدت جذوتا خدّيها وامتقع لون وجهها ومال بياضه العاجي الى الكدورة والاصفرار . حينئذٍ وقفت عليها احدى وصيفاتها وقالت : رفقاً بنفسكِ وبنا يا سيدتي فانك تنتحرين وتشقين قلوبنا جزعاً عليكِ ولا تدرين . ان كنتِ لا ترحمين نفسك ولا ايانا فارحمي الامير الذي تحبينه . انه ولا ريب ينشدك وعمّا قليل يبتدي اليكِ . ولعله يقتحم لانقاذك لظى حربٍ ضروس . أفتركب لاجلك الاخطار ويعاني الاهوال ثم لا ينتزعك من اشداق الاسر الا وقد صرتِ جلداً على عظم كغصنٍ اذهب الجفاف نضارته ، اما كفاهُ ما تجشم من وحشة الغربة واتعاب السفر ولوعة الفراق ومكائد الحساد وما يكابد من

اخطار الحرب واهوالها حتى تصدعي فؤاده بالحزن وتنغصي عليه العيش وتعكري صفوه وتنغصي حياته في الشقاء . اين هذا من المحبة الواعية التي لا تنظر الا الى مصلحة المحبوب فتصبر على الضيم وتستعذب المرّ وتستطيب العذاب وتتلقى الملمات بالفرح ولا تبالي بالتعب والشقاء . ها انك قد استسلمت الى الغمّ وبتِ قلبك للحزن ولم تشفقي على عينيكِ من عواقب البكاء ، ونبذتِ كل تسلية وتعزية وعفتِ الطعام والشراب وصرت من النحول على قيد خطوة من التلف ، فاذا نفعكِ ما تصنعين . فارجعي الى نفسك وتدبّري امركِ واصبري على ما نابكِ وتوكلي على الله يؤتكِ الفرج القريب . ووقع الجواري الثلاث على عنقها يقبلنها باكيات ويقلنَ ارحمينا يا سيدتنا فقد ذابت قلوبنا جزعاً وتصدعت اكبادنا كمدًا . افلا ترحمين . فافاقت هيفاء من سكرة الحزن وقالت : لتطبْ انفسكنَّ ، وطلبت ماءً فغسلت وجهها . ثم اكرهت نفسها على الطعام فاكلت قليلًا وشربت . وقالت : لا أمرّ من ذلّ الاسر لكنه حلو في سبيل الحبيب . لقد سئمت الحياة من سجن الى سجن ومن كوبر الى كوبر . فان رضيتها على علاتها فلاجل فخر الدين ، وكان الحراس من اجل التوصية يطلقون لها ولرفيقاتها حرية التجول في القلعة وكانت بعد غياب الشمس تطلع على السطح وتسرح الطرف على مشاهد المدينة الرائعة وقصورها الشاهقة وقبابها العالية ولا تشبع عنها من مشهد يُردي سائلًا يتلوى بين الحدائق والجنان والفياض كذوب الفضة تحت اشعة القمر ، وكالمرآة الصقيلة تنعكس عليه صور الاغصان المتحركة بنسمات الليل المبللة بالندى ، ثم ترفع ناظريها الى ما فوق فيخلب لبها مشهد السماء المرصعة بلآلي النجوم . فتتنهد من اعماق الصدر وتصعد الزفرات ويلتف على قلبها سحابة من الاكتئاب وتتالى على ذهنها الذكريات لذيذةً ومؤلمة . تذكر سهراتها الحافلة باللذات الطاهرة على سطح قصرها في دير القمر الى جانب فخر الدين ورأسها الى صدره وعيناها الى السماء يريها النجوم باصبعه ويميّزها باسمائها العربية ويشرح لها ما يعلمه من سيرها ودورانها وسرعتها وابعادها وطلوعها ومغيبها واقترانها وافتراقها الى غير ذلك من خواصها واحوالها . فلدى هذه الذكرى تسقط من بين اجفانها لؤلؤتان تمسحها عن ورد وجنتيها الاصفر بمنديل من حرير . وتحوّل نظرها الى الفرقدين فيختلج في صدرها

الحسد وتقول : سقيا لكما يا فرقدان . خلقتما متصاحبين ولن تبرحا كذلك الى الابد . لماذا لم أرزق مثل حظكما السعيد انا التاعسة التي يحرق احشاءها وهج الفراق ؟ انك جميلة يا سماء في ما عليك من زينة النيّرات ، لكنَّ جمالك ناقص في نظري لاني لا اشاهد بين نجومك الساطعة ذلك النجم اللامع المحبوب الذي اسميه فخر الدين . اين انت يا فخر لبنان يا عزَّ ارزه وشربينه يا عماده ورافع ضيمه وقاهر اعدائه وسهمه النافذ وسيفه الباتر ومُذل المتجبرين عليه وقالع عيون الطامحين اليه ومُعلي بناء مجده ومُطلع اقمار سعده ، اين انت ايها الاسد الرئبال اب الاشبال ، المزّق الصفوف في القتال . لماذا لا اراك اذ ارى الجوزاء وفوقها قد نصبتَ مقعدك . لِمَ لا اراك اذ اسرح الطرف على هذه الرياض الغنّاء ، وفي رياض المكارم جعلتَ مرتعك ، لِمَ لا تُسمع زئيرك هذه القلعة فتتداعى جدرانها وتتزعزع اركانها وتتحطم اقفالها ؟ لماذا لا تطلع من وراء هذه الجبال كما يطلع البدر فيتبدّد ظلام الوحشة من اشرافك وابصر انوار الانس تتألق في زوايا هذا الحصن حيث تكتنفني ظلمة القبور ؟

شهر تقضى وهي في القلعة تغالب الغمّ وتناصب الهمّ وتسطو على اسباب اليأس باسباب الرجاء . تهب على نفسها ريح التذكر الطارة فتتلظى بين ضلوعها النار الهاجعة تحت رماد التجلد والتأميل . فتصبُّ عليها مطرةً من الدمع تخمد لظاها وتخفف من الم الاحتراق .

نزلت ذات ليلة عن السطح تتهادها الافكار المقلقة وتتعاقب على قلبها الهواجس والهموم . فاتت سريرها وذكرت الله والتمست عونه وترجت رحمته وخلاصه ، فسقط على نفسها قطر من ندى التعزية فنامت ورأت في نومها كأن يداً ناعمة تمسح على جبينها وخديها فاحست ببرودة لذيذة مُنعشة ، وكأنها فتحت عينيها فاذا الى جانب سريرها امرأة ملتحفة بالبياض تسرق بجمال طلعتها الابصار ، وعلى ذراعها اليسرى طفل كتمثال من لجين يهيّ المنظر باسم الثغر بعينين تشع منهما انوار النقاوة والوداعة والظرف . كلاهما يزين جبينه اكليل لامع يرجع عنه النظر وهو كليل . فطفح قلبها سروراً وقالت : من تكونين يا سيدتي؟ لم أرَ مثلك لك في بنات الانسان . انك لاجل من الشمس وابهى من القمر . أهما من جواريك يا ربة الحسن والكمال ، من تكونين ؟ — قالت : انا ام

الرحمة ، انا نجمة الصبح ، وابني هذا هو الرحمة النازل من السماء ، فاحنت رأسها سجوداً لها وقالت : الا ترحميني يا سيدتي ؟ قالت بلى ، ولهذا اتيت . أحبي ابني من كل قلبك تجدي رحمة وخلاصاً . قالت كاني بقلبي مضطرم وها انه يذوب بمحبته . وادنت شفتيها من قدميه الصغيرتين وقبلتهما بحب لا مزيد عليه . واذا بفخر الدين يظهر فجأة وينحني امام الطفل العجيب ويلقي سيفه لدى قدميه ، فمسح الطفل بيده اللطيفة على رأس الامير وتبسم . حينئذٍ استيقظت هيفاء وهي لا تملك نفسها من فرط الفرح . ولما انثرّ ثغر الصباح قصت حلمها اللذيذ على وصيفاتها فدهشن وقلن لها : أبشري بخلاص قريب . وبينا هن جالسات يتحدثن اذا جندي من حرس القلعة يحيي هيفاء « بعمي صباحاً » ثم قال لها : رفرفي بجناحيك يا حمامة الارز هوذا ساعة المطير الى اهلك وبلدك . فلمع بعينيها برق السرور . وقالت : لئن صدقت بشراك لاجزلنّ عطاءك . قال : صدقت ، والله ، فاخرجي للقاء رجالك . خرجت فاذا اربعة فرسان في طليعتهم سرور العدّاء مملوك فخر الدين . سلّم عليها وهنّأها بالاقبالات من اسرها وحملها ووصيفاتها على الافراس الاربعة وساروا بهن في طريق دير القمر . وكان سرور ممسكاً بمقود فرسها فسألته عن سيده الامير واولاده وسائر آل معن وعن والدها واخوتها وعن نتيجة حرب عكار فاخبرها بكل ما جرى . واستغربت الاميرة مفاجأة انقاذها من القلعة فطلبت ان يشرح ذلك لها . فقال : ان الامير حتى الساعة ، لا يعرف من امرك شيئاً لا كيف خرجت من قلعة الحصن ولا الى اين صرت ولا انك حية ترزقين او ميتة لا ترجعين . اطلق رسله ينشدونك في انحاء البلاد فلم يهتدِ احد الى مثواك . ولا ظفر انسان بخبر عنك او اثر منك ، فتنغصت عليه لذات انتصاراته وتوجه بعسكره نحو دير القمر فعرّج على بيروت لينظم احكامها وعمّا قليل يبرحها الى قاعدة حكمه .

اما انا فاوقفني على حالك ابوك وقد عرف ما وقع لك من مصطفى باشا والي الشام الذي وجه الى ابيك رسالة من القصير يخبره باعتقالك وبعزمه على ضمك الى حريمه بعد عوده الى دمشق . فشقّ الامر على ابيك وحملني رسالة الى سيدي الامير فخر الدين فلم ابلغه الرسالة خشية ان ازيده قلقاً واثير مخوته لاضرام حرب في الشام قبل ان يستريح رجاله من اتعاب حرب عكار . وقلت

لابيك لي حيلة في انقاذ الاميرة احبُّ ان اعالجها فان نجحت كفيتا مؤنة القوة والا فالرسالة في يدي انفذها الى سيدي الامير . قال ما حيلتك ؟ فكشفت له عما بخاطري فاستوعر الخطة لكنه لم ينهني عنها . فانطلقت الى صديق لي من المقربين الى كاتب مصطفى باشا وابحتُ له بسري واستعنت به على امري واعطيته ياقوتة غالية الثمن وجدتها بين الغنائم التي غنمناها من قلعة الحصن فحملها الى الكاتب وغرَّه بها فزوَّر كتابة عن لسان الوالي الى قائد قلعة الشام يأمره بان يخلي عنك ويسلمك اليَّ فور وصول الرسالة اليه . فاخذتها من صديقي وعليها مثل توقيع الباشا وخاتمه. واتيت بها ومعي هؤلا. الرفاق الثلاثة وجازت حيلتنا وانتهت بالفوز لسعادتك وسعادة الامير .

تعجبت هيفا. من سماعها هذا الحديث واعجبت بدها. سرور واثنت على شهامته وولائه ، وحضر في خاطرها الحلم الذي رأته . فايقنت انه من الله سبحانه رأفة منه بحالها وجبرًا لكسرها واستمالة لها الى عبادته على حسب مشيئته ، فوطنت النفس على ارضائه والتمست منه ان يسهل لها السبيل بقوته وجوده وحكمته.

١٦

افراح النصر والبقاء

لمّا صار الامير على مسيرة ميل من قاعدة حكمه الى الغرب خرج اهلها لتلقائه ومعهم جمع غفير من سكان الشوف وغيرهم ممن اتى لتهنئته بانتصاره العظيم. فخطرت على باله هيفا. وشقّ عليه ان يدخل دير القمر بالسلب والغنائم والرايات المنتزعة من العدوّ محفوفًا بالمجد وبالوف الهاتفين والمعظّمين ولا تكون هي الى جانبه تشاركه في فرح انتصاره وتجالسه تحت سرادق عزه، وخيّل اليه انه على باب داره وقد ألبست الدار من اغصان الارز والزيتون والريحان ومن ازهار الحقل والبساتين حُلة خضرا. مفوّفة تسترق بحسنها العيون ، وانه وقف وقال : بئس هذه الزينة يا دار ، لأن اراكِ عاطلة منها وفيكِ مصباحك المنير ألذّ لعيني من وحشتك المرعبة في حلّتك الشائقة . انقبض فؤاده وتجهّم وجهه وأمسى في ذلك الحشد الكبير كما لو كان وحيدًا في قفر لا يسمع ولا يرى شيئاً الّا اشتكا. هيفا. من تحامل الدهر والّا شبحها الكئيب يرسف في قيود

الذل،وانه لكذلك واذا مملوكه سرور وقف لديه وقبّل ركابه وقال : بشرى يا سيدي الامير ! الظفر ظفران الاميرة هيفاء قائمة للقائك في باحة الدار . فخفق قلب الامير واوهت شدة الفرح المفاجئ قواه فنزل عن فرسه في مدخل البلد الغربي « الميدان العتيق » وجلس على طنفسة فوق دكّة يشاهد العاب المسايفين والفرسان المسابقين والمتراشقين بالجريد والراقصين والمنشدين، وأمر مملوكه سروراً بالجلوس في قربه وواجهه بالهشاشة والرضا وقال له : لله درُّك يا سرور، ما تبشرنا الّا بخير ، فايه . فأخبره سرور بقصة انقاذه للاميرة بكل تفاصيلها واسبابها من اولها الى آخرها ، فتعجب الامير من دهائه وذكائه ولطف حيلته وتهالكه في محبة اميره . وخلع عليه وقرّبه ورفع رتبته ووعده بمنصب يُحسد عليه . ودخل الامير العاصمة بابهة وعزّ عظيمين تحت اقواس النصر على نقف الدفوف واصوات الهتاف تظلّله غمامة من قتام البارود ، التقى بهيفاء بعد ذلك الفراق اللاذع الطويل ، فحدّث عن بهجة ذلك اللقاء ولا حرج ، وأمر فأقيمت الافراح ثلاثة ايام أولم فيها لاهل البلاد وفرّق الغنائم على المحاربين تحت رايته وصرفهم للاستراحة في بيوتهم بالمال والتحف موقرين. ثم استدعى رجاله السبعة الابطال وقال لهم : انكم حقيقون بالمكافأة . فليسألني كل منكم ما يشاؤه فسألوه فأعطاهم وأجزل العطاء ، وقال ليوسف الحوري (المشتر) : انت يا يوسف بطل عكار على ثباتك في وجه العدوّ ترتب لنا النصر،فمن الآن تدعى ثابتاً لانك ثبتّ دون سائر المحاربين ، لم ترهب الموت ولم تولِّ العدوّ قفاك ، فدعي ثابتاً وهو الجد الاول لاسرة ثابت الديرية ، وكان ولوعاً بالمجد فلم يسأل الامير مالاً ولا أرضاً بل تقبل الخلعة بالشكر وسأله ان ينصب على باب داره راية لبنانية بين اسدين من حجر عكارَ الاصفر ويكون ذلك حقاً له ولذريته ذكراً لتهالكه في محبة وطنه واميره ، فصنع له ذلك واعطاه كل الارض التي تجاه دير القمر من المعاصر الى نبع البستان شرقاً فغرباً ومن بعقلين الى النهر الفاصل بينها وبين دير القمر جنوباً فشمالاً . فكان الاسدان الحجريان على عضادتي الباب حتى تغيّر شكل الدار بعد حوادث عام ١٨٦٠ اما الارض فخرجت عن ملكه قبل انقراض سلالة المعنيين الا قطعة في المعاصر مكثت في ايدي ورثائه الى عهد الشهابيّ الكبير .

وبنى الامير قصره الفخم في دير القمر اربع طبقات ضخمة واسعة معقودة السقوف بالحجر الا الطبقة العليا سقوفها من خشب الارز وصنع للقصر مدخلاً عظيماً بقوس من حجر عكار الاصفر مزين بالحفر البديع والنقش الناتئ، فجاء البناء حصناً منيعاً عريض الجدران ضيّق النوافذ من الخارج عريضها من الداخل عالي الابواب كثير القاعات الفسيحة لكنها قليلة الضوء ولا سيما في الطبقات التي تحت الرابعة فلا تنفذ اليها أشعة الشمس وجرّ اليها الماء في انابيب من خزف مطمورة في التراب وجعل من داخل دار الحريم منفذاً سرّياً في دهليز عميق الى حمّام بديع الهندسة جميل النقش والبناء بناه في اسفل المدينة تحت سراي الامير يوسف الشهابي التي لا تزال قائمة الى اليوم .

وكان ذلك الدهليز مهرباً خفيّاً من هذا الحصن ومخبأ حريزاً مهيّأ لنجاة الامراء والاميرات عند مفاجأة الحدثان . موقع هذه الدار في سوق الميدان من الشمال يميل الى الشرق تحت غابة الشربين القديمة العهد القائمة في صدر تلّ على قمة خراب هيكل يرجح كونه من بناء الرومانيين ، ولعلّه اقيم لعبادة القمر فدعيت المدينة باسمه (دير القمر) نقلاً عن اللغة السريانية (دَيرُ) الذي تفسيره دار او دير وقيل غير ذلك في تسمية البلد بهذا الاسم .

ولفخر الدين واخيه يونس ابنية غير هذا القصر في دير القمر ، منها الجامع والمأذنة ومنها الطبقة السفلى من دار انطون عيد البستاني وما يليها الى الغرب الشمالي ، الى غير ذلك، وبنايات المعنيين ممتازة ومعروفة بفخامتها وقوتها وزخرفها وشكلها وحجارتها وقد تسلطت على بعضها عوامل التغيير والتهديم .

ورَت هيفاء لفخرالدين حكاية خطفها من المركب الى آخر ما وقع لها من يوم حبَس عليها ابوها الى انطلاقها من الحصن الى سجنها في قلعة الشام وانقاذها على يد مملوكه سرور ، ولم تشكُ اليه من والدها وان كان قد حبس عليها وسدّ مخارج الافلات ولم يدع منفذاً للانبا. منها واليها فقد كان على ذلك يحسن اليها قولاً وفعلاً ولا يحبس عنها شيئاً من حنانه الوالدي بل احاطها بأصناف التسليات ولم يكن شيء يعكّر صفوها الا انفصالها عن زوجها مكرهة على الفراق ؛ غير انها كانت تعالج هذا البلاء بترجي اللقاء . واخبرها الامير بعفوه عن ابيها واخوتها وسائر آل سيفا . فطابت نفسها بحلمه وقالت : لا

استعظم هذا العفو على سمة الامير، ولم يبتها ما آلت اليه حالهم من قصر الباع بعد ما كان لهم من حول وطول لافتضاء ذلك الى اشراق مجد الامير وهدوء باله ومصلحة لبنان . واصبح ما حلّ بآل سيفا عبرة لغيرهم من ذوي السلطة وولاة الاحكام في البلاد ، وقعت عليهم مهابة فخر الدين واصبحوا على خشية من صولته فمال بعضهم الى مسالمته خاضعين ، اما هو فكان معوّله على ما يرومه من بسطة الفرّ والسلطان على الفطنة والروية وجودة التدبير وانتهاز الفرص ولا سيما بعد ما عرف تبرّم الناس من حروب المعنيين والسيفيين لما جرّته على البلاد من كوارث وخسائر في المال والرجال . وقد قال في ذلك الشاعر ابراهيم الاكرمي :

خلِّ عنّا ذكرَ ابن سيفا ومَعن اتما يطلب الغريمَ الغريمُ
ما لنا والحروب نحن أناسٌ ما لنا طاقة بشيء يضيمُ

٢٠
فتح وتحصين

رسم الامير لنفسه خطة فلم يحِد عن انفاذها ، ورمى الى غاية فلم تقعد همته عن إدراكها ، فبعد ان أمن تطاول السيفيين بكسر شوكتهم وتقويض عزّهم عبأ جيشاً لجباً وارسل الى الامير احمد طريبه ينذره بالويل والثبور اذا هو لم يَدِن لطاعته راضياً بما يشرطه عليه . ولما ذهب إنذاره ادراج الرياح زحف عليه وقاتله فكسره . ثم زحف على مصطفى باشا وقهره في واقعة المجدل ثم سار بالعسكر الى وادي التيم وكان على حكمها أحمد الشهابي فادّاه الطاعة بلا قتال . وحذا حذوه الامير علي الشهابي في حاصبيا ، وسار فخر الدين برجاله الى بانياس فرمّم قلعتها ثم الى صرخد فشيّد فيها قلعة والى بعلبك فرمّم قلعتها وبنى قلعة في قب الياس .

وكان اللبنانيون معجبين بأميرهم لما له من علوّ الاخلاق وجرأة القلب وبُعد الهمة والمهارة في فنون القتال . وقد اسكرهم واسكره ما احرزوه من الظفر والفتح بجودة قيادته وقيادة ابنه الامير علي . واصبحوا وقد ارتفعت اقدارهم وعمرت ديارهم واتسعت تخومهم ، فاحاطوا به احاطة الهالة بالقمر يفدّونه

بارواحهم ويحاربون حروبه مستميتين غير هيابين ، مترابطين برباط المحبة الوطنية والاتحاد الاخوي على اختلاف نحلهم الدينية ، وكلهم مفاخر باسم لبناني ، الكل وطني ، الكل لبناني كلهم يشدون أزر حامي الوطن وابيه .

وكان الامير معتزاً بهذه الرعية المتحدة قلباً ومرمى ويداً . فزحف بجيش من اشدائهم بأساً على غربي حماة فوافاه اهلها خاضعين ، فبنى قلعة تجاه حلب شمالي قلعة الشماميس واقام حصناً منيعاً فوق انطاكية . ثم قام الى بلاد الثغر وبيلان فجاءه والي حلب مسالماً وقدم له ثلاثين ذهباً والف حمل مؤونة لعسكره فتقبل هديته وكف عسكره عن التصدي لرعاياه . واصبح لبنان في ذلك العهد مملكة قوية واسعة الارجاء منظمة الجيش والاحكام مرهوبة الجانب غنية بالمال والرجال والبقاع ، ولها السيطرة والسلطة من حدود حلب الى حدود القدس الشريف . فتربع فخر الدين في دست هذه الامارة الكبيرة بلا منازع ولا مطاول . وذهب له صيت بعيد ولمع له مجد عظيم ، ووالته الاقدار فأقره السلطان على فتوحه ونفحه لقب « سلطان البر » وكان للسلاطين من آل عثمان لقب « سلطان البرين والبحرين » .

ومن جودة تدبيره وبُعد نظره أنه ظل متصلاً بين حالفهم من ملوك اوربة وأمرائها ، فكان يراسلهم ويراسلونه ويمدونه بالمال والرجال ، فنما عرشه لتعهده اياه بكل عوامل النماء ، وجنى من قطوفه ما لذ وشاق وطاب وكان يخبر الحلفاء بحروبه وفتوحه وما يرمي اليه من ايهان سلطة الدولة وخشد شوكتها الى هز عرشها هزة تكون الكافلة بدكه ، وقام في اعتقادهم أن اقل ما يترتب على قهره ولاة تركيا في البلاد السورية يكون وقوع الدولة في المشاكل والمتاعب وتكبد الخسائر مما يفل من عزمها ويفت في عضدها ويقصر باعها فلذلك بدروا لمناصرته وشد أزره بالرأي والمال والرجال . اما كسوس الثاني دوق توسكانا فكان له السبق في معاضدته وانفاذ المحالفة ، ففي سنة ١٦٣٠ أرسل اليه الكافليار فراتزانو في عدد كبير من المراكب تحمل اثقالاً من الميرة والذخيرة والملابس وجماعة من المهندسين وحذاق العمال مما يلزم للحرب من إنشاء الخطط وتشييد الحصون وحفر الخنادق ونصب المتاريس على الطرائق الفنية . وتهض العلامة ابراهيم الحاقلاني يذكر البابا اوربانوس الثامن بفخر الدين ويصف

له حروبه الظافرة ومفاخره العالية وما يترتب على نجاحه من استتباب الامن وانتشار السلام ودرء المظالم ورفع المآثر فلم يسع البابا تجاه اقواله السائغة وبراهينه الساطعة ومساعيه البارعة الا ان يجب ملتمسه ، فأمدّ الامير وآزره وأدرّ عليه اخلاف نعمته ، وقام فخر الدين بحرمة الصنيعة واستدام بشكره النعمة . وكان يوم عرّج على مالطة قد عالنَ فرسان الجزيرة بما ينويه من محاربة الدولة اذا تمت له المحالفة في اوربة ولم يخذله الحلفاء . فجدّد الفرسان سعيه وأملوه بأن يكونوا من نصرائه ، غير انهم لم يبتّوا له عهد المحالفة حتى يروا ما يكون من أمره بعد عوده الى لبنان وامتشاقه الحسام ، فلما حصل له ما علمت من توحيد الامارة اللبنانية والاستيلاء على الولايات المجاورة ببأس اللبنانيين الملتفين حول رايته وبامداد حلفائه في ايطاليا واسبانيا أخذ يراسل فرسان جزيرة مالطة مرهفاً عزمهم على محالفته رغبة في ايجاد دعوة صليبية على الدولة العثمانية . ولولا طوارئ لم تكن في الحسبان افسدت الطبخة وغيّرت وجه الحال لنجح مسعاه وفاز بثناه .

٢١

منتهى فخر الدين

تمّ للامير ما ابتغاه للبنان من امتداد الملك ومناعة الجانب وبسطة العزّ والاستقلال بالحكم في امارة واحدة وطنية متلاحمة الاجزاء نصب فيها قسطاس العدل ورفع منارة الحق وارتعها اخصب مراتع الطمأنينة والامن ، اصبح اللبنانيون شعباً واحداً قوياً مجموع الكلمة والرأي لا يطمع فيه طامع ولا يجرؤ على منازعته منازع ، واقام فخر الدين عمّالاً له في البلاد من ذوي المهابة والحنكة والرأي والتدبير ولاهم الاقاليم غير ناظر في انتقائهم الى الطائفة والمذهب بل الى الكفاءة والاقتدار وفتح عليهم عين المراقبة احتياطاً للزلل وسدّاً للخلل فاستقامت الاحكام وروعيت الحقوق وعم السلام وكان من عمّاله الشيخ ابو نادر الخازني ولّاه بلاد جبيل والشيخ اب صافي اخوه ولّاه على بلاد بشري والمقدّم يوسف الشاعر على بلاد البترون اعتباراً لمقدرتهم العقلية والادارية ومنزلتهم العالية واخلاصهم للوطن . ورسخت قدمه في الديانة المسيحية غير

مجاهر بها مخافة انقلاب الكثيرين عليه ، فاكتفى باقامة معبد في قصره واختار لخدمته الروحية كاهناً من المدينة يقيمها في موافيها ويعود الى منزله ومعاشه من خزانة الامير . وكان للكاهن في بيته صورة تمثل العذراء النقية حاملة على ذراعها الطفل يسوع فأتى بها الى المعبد ورفعها على المذبح وتأملتها هيفاء فاذا هي رسم السيدة الجليلة التي رأتها في الحلم وتذكرت احسانها اليها فاستكنت في الايمان المسيحي وتوفرت على عبادة القديسة ام الله وبالغت في اكرامها فكانت تزور صورتها المحبوبة مرات كل يوم وتفزع اليها من كل ضيق وتسألها الحماية والسلامة والنصر لفخر الدين واعوانه في الحروب . وتأصلت في نفسها مخافة الرب ومحبة القريب ، فكانت تحمد بتوسلها العذب سخط الامير اذ يشتد للانتقام من مناوئيه وتحبب اليه الوداعة والرحمة لانهما من فضائل القادي الكريم، وملكت قلوب الجميع بلطفها ولين مقالها وبسط كفها للعطاء ومواساتها للضعفاء وتصدقها على الفقراء ، وتضاعفت محبة فخر الدين لها من اجل هذه الخلال ، وكان يرجع اليها في فضّ المشكلات وحلّ المعضلات ، لما خبره من توقد ذهنها وصفاء نفسها وسداد رأيها وبُعد نظرها في الامور .

لو قنع فخر الدين يومذ القدر من السلطان لتمّم لبنان بما ابلغه اليه من العزّ والقوة والمهابة ووفرة المرافق ورخاء العيش في استقلاله المنيع وثروته المادية والادبية دهراً طويلاً غير انه ذهب مع سكرة السلطة والانتصار واستفزّ رواء المجد فطمحت نفسه الى السلطنة والعرش والصولجان ، ونهته هيفاء ومشيروه المخلصون عن هذا الطموح الخطر فأبى الا ان يجازيه مجاهراً بقصده الجسور غير حاذر ولا حاسب لاعدائه حساباً، وبنى في بيروت قصوراً وقلاعاً وخاناً وحديقة الوحوش تقليداً للسلطنة، وفي صيدا خاناً للتجار الافرنج، فانبرى اعداؤه ولاسيما آل فروخ وسيفا وطربيه يرسلون الشكايات عليه والوشايات الى الباب العالي بأنه نازع الى الاستقلال وخارج على السلطان ومارق من الإسلام لا يكترث لشريعة الرسول فلا يصوم رمضان ولا يدخل الجامع الّا مرة في السنة وقد هدم عدة جوامع وامسى عثرة في سبيل الإسلام فاشتمّ الباب العالي من جهته ريح التطاول وبات على ترقّب من خضوعه واشفق منه وثبة على العرش فاستفاق من غفلته وانتصب على قدم الحذر فأمسى الامير هدفاً للتهم . طمع وما درى انه وقع.

كانت الريح مواتية لسفينته والسبل ممهدة لاغراضه والبلاد مجموعة في قبضته واوربة تعاونه على امره والبابا وفرسان مالطة يفكرون في الدعوة الى حرب صليبية جديدة تقلب عرش تركيا وترد الاتراك الى منابتهم ، والدولة مفضية عنه ساعية الى مرضاته ونفسه تحدثه بالارتقاء الى ذروة المجد والعلاء في سلالم القواضب والرماح ، فاذا بالسعد يأفل وبالاحوال تنقلب ، وبالاحلام اللذيذة تنكشف عن حقائق مروعة .

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

تفشّى الطاعون في بلاد ايطاليا وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً فشغل كسموس دوق توسكانا عن فخر الدين ولبنانه بايجاد الوسائل لدرء الوباء عن بلاده فانقطع إمداده عن لبنان ، واستقدم منه الكافليار فراتزانو ومن معه من عمّال ومهندسين .

واشتدت في اوربة وطأة « حرب الثلاثين عاماً » وهي سلسلة منازعات وحروب دينية سياسية شغلت اوربة من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨ . عصفت فيها ريح التباغض بين الكاثوليك والبروتستانت فريمت البابوية لتفاقم الخطب ولم يعد باستطاعة البابا ان يمدّ فخر الدين بمساعدة ولا ان يدعو اوربة لحرب صليبيّة جديدة واوربة يومئذٍ غارقة في بحار فتنتها وحروبها الرائعة .

(عن كتاب « في سبيل لبنان »)

ورأت الدولة اوربة رازحة تحت اثقال تلك الحوادث فانتهزت الفرصة للقضاء على مطامع فخر الدين ، فكان هنا موضع قول الشاعر : مصائب قوم عند قوم فوائد .

قال صاحب كتاب « في سبيل لبنان » : « ففي سنة ١٦٣٢ أصدر السلطان مراد أمره الى الصدر الاعظم خليل باشا فنُبئت الجيوش وزحفت على لبنان بأمرة أحمد باشا الحافظ كجك فوصلت الى الجبل يوم كانت انقطعت عن فخر الدين مساعدة حلفائه الاوروبيين مما حسّن في مركز الحافظ الحربي فانتشب القتال بين الفريقين وظلّ مدة سجالاً بينهما تارة يبسم النصر للبنانيين

وطورًا يعبس في وجوههم حتى أصيبوا بفقد قائدهم الامير علي ابن الامير فخر الدين وهو من أمهر قوّاد زمانه ، فكان فقده فاتحة شؤم ووبال على قومه ففارق السعد ألوية اللبنانيين وما لبث ان استظهر الحافظ كجك عليهم والتوى الامر على فخر الدين . وكان للامير في انقلاب الدهر عليه اسوة بمن سبقه ومن لحقه من قوّاد عظام وملوك كبار خانهم القدر في بلوغ ما رموا اليه من الغايات الوطنية » .

جاهد اللبنانيون حول اميرهم جهاد الابطال واستماتوا في الدفاع عن وطنهم ونفوسهم فلم يُجدهم ذلك الا الزيادة في تسخط اعدائهم واستفزاز ضراوتهم واستشرانهم . وكان هؤلاء اكثر منهم عددًا واتمّ عدّة فتغلبوا عليهم ، والكثرة تغلب الشجاعة . ورزء فخر الدين بابنه عليّ قصم ظهره وضعضع رشده وزاد في الطين بلّة ما اصابه من خسارة فتوحاته التي خرجت عليه وانضمام الذين كان قد قهرهم الى صفوف أعدائه . غير انه لرحابة صدره وفساحة صبره وكبر نفسه وعلو همته آثر الموت في ساحة الشرف على التسليم الى تركيا قاتلة جدّه وابيه وصارعة فلذة كبده ابنه عليّ . فصمد للاعداء يناجزهم القتال كرًّا وفرًّا الى ان خانته القوّة وتفرقت عنه الرجال فناله العجز عن النزال ، ولم يبق له ملجأ غير الحصون . فأرسل حسيناً اصغر اولاده مع مدبّره الشيخ نوفل الخازني الى قلعة المرقب . فلما اشتد عليهم خناق الضيق سلّموا مضطرين ولم يُقتل احد منهم ، وفرّ فخر الدين الى قلعة شقيف تيرون (قلعة نيحا) فدخلها مع اولاده منصور وحيدر وبُلك ومدبره الشيخ أبي نادر ونفر من رجال حربه وذويه . فشدّد العدوّ الحصار عليهم ، وضربوا القلعة بالقنابل المهدّمة . واهتدوا الى قناة الماء المجرورة الى بئر في القلعة تحت التراب فقيل انهم القوا فيها سمًّا وقيل القوا في القناة دم حيوانات ذبحوها ففسدت ماء البئر ولم تعد صالحة للشرب . فانسلّ الامير ومن معه ليلًا الى مغارة جزين وهي في صخرة ممتدة من شلال جزين الى نهر عزّيبة على طول نحو ٣٠٠ متر من الجنوب الى الشمال وليس لها الا مدخل وحيد مربع الشكل بقياس متر مربّع ومن تحته منحدر الى الوادي تخاف العين ان تتأمله لملاسته الزلّاقة وعظم ارتفاعه العمودي . فلا يقدر احد على الوصول الى مدخل المغارة من علُ ولا على الصعود اليه من اسفل الّا بسلّم منقولة ،

ورجل واحد كفوء لحماية هذه القلعة الطبيعية فتستمنع على جيش لجب . اقام فخر الدين ومن معه في هذا الحصن المنيع الذي يكاد يمتنع عن عقاب الجوّ، وقنابل المدافع تزلق عن صدره الصلب الاصمّ ولا تحدث فيه اثرًا ، مكثوا فيه مختبئين طائفة من الزمن آمنين يجيئهم بالطعام رجل من مزارعي الامير من عائلة معلم في قرية وادي جزين واليه المنهر الفاصل بين المغارة والقرية جسر فكان الرجل يعبره غائصاً في الماء مستترًا بثوب الظلام خوفاً من طلّاب نفس الامير فقدّر الامير خدمته الشاقة ووهبه القرية ثواباً، وفي قرية مشرشة تقليد آخر يذهب الى ان رجلًا من اهلها كان يحمل الميرة الى الامير وصحبه في عتمة الليل فدُعي عتّمة واطلق هذا الاسم على ذريته الى اليوم ، ثم ان المحاصَرين أُجئوا للتسليم قيل لنفاد الميرة وقيل ان جنود الدولة احتفروا تحت الصخرة وعالجوها بالنقر من تحت المغارة حتى نفذوا اليهم فضرب الامير جبهته بيده ، وصاح : لقد خانت الحيلة ، فلا وزر مما قضى الله واقياً . ورمى بسلاحه الى الجند فاقتادوه والذين معه الى الحافظ كجك فاطلق سراح الشيخ اب نادر وابنه الشيخ نوفل وارسل فخر الدين واولاده الى الاستانة فأُشربوا سمًّا وماتوا سنة ١٦٣٥ ، ولفظ فخر الدين النفس الاخير وهو يقبّل ذخيرة عود الصليب ، وقال لهيفاء لا تجزعي ولا تبكي فاننا منتقلون من الشقاء والفناء الى السعادة والبقاء ، فاطبقت اجفانه وغسلته بالدموع وجاهرت بالايمان المسيحي وما لبثت ان شربت مثل الكاس التي شرب ممتلئة النفس عزاء بين غمرات الموت القاسية وهي تدعو باسم يسوع المخلص وامّه العذراء معزّية الحزان ، وتتوجا الحياة الخالدة مع حبيبها فخر الدين في عليين . وكانت سنو حياة هذا الامير العظيم اثنتين وخمسين سنة ».

ولم يبقَ من ذرّية فخر الدين الا ابنه الاصغر حسين رؤف السلطان بمجداته فعفا عنه ، وعاد الى الاسلام دين اجداده واستوطن الاستانة ونال حظوة لدى الباب العالي تقلّد مناصب الدولة وظفر بمنزلة عالية، وفي سنة ١٦٥١ ارسلته الدولة بعثة الى الهند فعرّج على دير القمر زائرًا الامير ملحم ابن عمه الامير يونس خليفة فخر الدين في الحكم . فرحّب به الامير ملحم ودعاه للاقامة في لبنان ويتخلّى له عن الامارة فأثنى على مروءته واعتذر اليه ومكث في

ضيافته عشرين يوماً تعاقبت فيها على نفسه تذكارات حداثته في ذلك البلد المحبوب، وعاين ما هنالك من آثار والده ومفاخره الباقية على الدهر، فكان تارة يفرح حتى تأخذه هزّة الطرب وتارة يحزن حتى لا يملك حبس الدموع . ثم انجز طريقه الى الهند وقضى المهمة المسندة اليه وعاد الى الاستانة واقام فيها الى يوم وفاته.

اما الامير ملحم ابن الامير يونس أخ فخرالدين فتولى الامارة من عام ١٦٣٥ الى ١٦٥٨ وقاتل ولاة سوريا في وقائع كثيرة فردّهم مدحورين واخص مواقعه موقعة وادي القرن استبسل فيها اللبنانيون وراحوا يضربون في اقفيـة اعدائهم الى ابواب دمشق. ولمّا توفي الامير ملحم خلفه ابنه الامير أحمد من عام ١٦٥٨ الى عام ١٦٩٧ وتوفي بلا عقب فانقرضت به سلالة المعنيين[1]

اجتمع اعيان اللبنانيين وتفاوضوا في مَن يولونه الحكم بعد الأمراء من آل معن فقرّ رأيهم على الامير حيدر الشهابي الذي وُلد للامير حسين الشهابي من زوجته بنت الامير ملحم المعني سنة ١٦٩٧ فانتقلت الامارة الى الامراء الشهابيين من ذلك العهد وولي الوصاية على الامير حيدر الامير بشير الشهابي الاول.

---

١) قال الموسيو يجه دي سان بيير مؤلف تاريخ الدروز سنة ١٧٦٣ : انّ نفرًا من الامراء العرب ولا سيما آل فروخ وطربيه وسيفا قدموا الشكايات للباب العالي مثل غيرهم من اعداء الامير مدّعين عليه انه لم يكترث لشريعة النبي محمد وانه هدم الجوامع ولم يدخلها إلّا مرةً في السنة ولم يصُمْ رمضان فغضب السلطان وأصدر أمرهُ الى كوجك احمد باشا والي الشام بمحاربته مع حكام الولايات المجاورة والامراء المعادين للمعنيّ . فجنّد المعنيّ ٢٥ الف رجل وجعل قيادتها بين ولديه الامير عليّ واخيه الامير يونس وقاد هو بنفسه بقية الجيش فقُتل الاميران وفُشل فخر الدين . ثم جاء قبطان باشا باسطوله وانتهى الامر بانقلاب المعنيّ . فوضع ثلاثة شروط لتسليمه . ١ً ان يُمنح الحرية ليذهب الى السلطان والابواق عازفة قدامه والاعلام مرتفعة امام حرسه المؤلف من ٣٠٠٠ رجل. ٢ً ان يُسمح لهُ بحمل مليون من النقود الذهبية ، وان يُسمح بعض ارزاقه على اربعة عشر جملًا . ٣ً ان لا يسير ابدًا منقادًا كالعبد المذحور امام انتصار الظافر وان يكون امام السلطان مكرّمًا كالباشاوات فقُبلت شروطهُ. ولاقاهُ السلطان بموكبه الى الباب . والقى السلطان عليه أسئلة فأجاب وهو لا يدري انه السلطان بل ظنّ انهُ احد ضباط المحكمة . وكان السلطان يتوق الى رؤية المعنيّ لما سمعهُ عنهُ من الاهبة والدهاء، فوضع له كرسيًا بجانب عرشه واجلسهُ ، وكان المعنيُّ قد ارسل اليه ثماني اوانٍ مملوءة ذهبًا . ولم يطُل المقام بالمعنيّ حتى سعى به اعداؤهُ وافق المفتي بقتله مع بعض اولاده وحملوا رأسهُ على حربةٍ وطافوا به في شوارع القسطنطينية وتحت رأسه الكتابة الآتية : هنا رأس الامير فخر الدين العدوّ الثائر. (عن مجلّة الآثار)

ذيل

كان للامير ملحم ابن الامير يونس المعني ولدان قرقماس وأحمد وكانت الدولة قد اقرّته على بلاده الشوف وتوابعه وارسل ثلاثين الف قرش الى مراد باشا الصدر الاعظم فقلده سنجقية صفد ايضاً. وبينما هو متوجه اليها ليجمع المال الاميري نزل به داء عضال وهو في عكاء فجيء به الى صيداء ومات فيها فحزن عليه الشوفيون حزناً عظيماً لما كان متحلياً به من خلال العدل والحلم والكرم والمقدرة السياسية واقيمت له مناحة مدة اربعين يوماً ، وصار الحكم من بعده الى ولديه قرقماس وأحمد ، ولم يطل بهما العهد حتى وقع خلاف بينهما وبين ابن الكبرا حاكم طرابلس لامتناعها عن ان يسلّما اليه بعض الشهابيين والحماديين محتجين بانهم لم يدخلوا بلادهما. فجهّز حملة عليهما وانضمّ اليه الباشا حاكم غزّة برجاله وابن علَم الدين وبنو طربيه برجالهم . فهربا الى بلاد جبيل واختبآ . وكان علي باشا الدفتردار حاكماً في مدينة صيدا من قِبل ابن الكبرا وهو عدوٌ لهما . فلما عُزل وتولى مكانه محمد باشا كتب هذا لهما انه يؤمّنهما وطلب ان يوجّها اليه كاخيتها ليردّهما الى بلادهما . فارسلا اليه الكاخية فطمأنه وقال له : استدعِ الاميرَين ليواجها كاخيتي في عين مزبود. فأتيا ولما شربا القهوة أمر الكاخية السكبان فضربوهما فقتلوا الامير قرقماس وجرحوا الامير أحمد بضربة سيف جرحاً بليغاً في عنقه وردّ عنه اتباعه فلاذ بالهرب ولم يمت وعاد الى حكم الشوف، وكان له ولد يدعى الامير ملحم توفي ولم يُرزق سواه . ثم أسندت ولاية صيدا الى احمد باشا التفتجي فزحف بعسكره على الشوف ففرّ الى وادي التيم فتولى حكم بلاده الامراء آل علَم الدين اليمنيّون. ولما عُزل احمد باشا التفتجي عاد الامير احمد الى بلاد الشوف وكان حكمه يتناول سبع مقاطعات : الشوف والجرد والمتن والغرب واقليم جزين واقليم كسروان . ثم وشى به الى الدولة أرسلان باشا والي طرابلس فأمر الصدر الاعظم بنزع هذه المقاطعات من يده وإلقائها الى الامير موسى اليمني ابن علَم الدين ، وخانه انصاره من النكديين والعيديين والزبكيين، فهرب الى وادي التيم واختبأ . فجاء الامير موسى علم الدين الى دير القمر ونزل في دار الامير

أحمد المعني وتلك المقاطعات السبع الى ان توفي السلطان أحمد وخلفه على أريكة السلطنة السلطان مصطفى ابن السلطان محمد ، فالتمس مصطفى باشا والي صيدا من الباب العالي اعادة الحكم الى الامير أحمد المعني. فصدر عفو عنه وعاد الى دير القمر قاعدة الحكم واستقرّ له الامر الى ان حضرته الوفاة في ١٥ ايلول سنة ١٦٩٧ ولم يخلّف عقباً ذكرًا فانقرضت سلالة المعنيين الذكور وانتقلت الامارة الى الامير حيدر الشهابي القاصر ، وكان وصيّه الامير بشير الاول الشهابي الى ان بلغ أشدّه فتولى الحكم بنفسه. وكان هذا بدء امارة الشهابيين في لبنان موروثة عن المعنيين .